ثرثرة في قرطاج

Gossip in Carthage

رواية

منجي الأشعاب

ماســـتر

ثرثرة في قرطاج

رواية

منجي الأشعاب

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ٢٠٢٠/٢٢١٨٤م

ISBN: 978-977-85768-5-6

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠٢١م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـــــداء

إلى الشباب التونسي العظيم
إلى الشباب العربي العظيم
الحياة حلمٌ أو لا تكون
تجتهد ألاّ تكون
إلاّ من إنسان أو مجنون.

تقديـــــم

«المهديّ» هو «شيطان روائيّ» يسكنني فيُلهمني بين الفينة والأخرى بعض الخواطر، وهي خواطر تتردّد بين الحديث عن الإنسان تارة والحديث عن الوطن تارة أخرى، تنزل عليّ مشتّتة غير منظّمة، فتحلّق بين الماضي والحاضر والمستقبل، فإذا ارتدّت إلى الماضي كانت مساءلة وإذا استشرفت المستقبل أضحت نبوءة، وأنا بين هذا وذاك استمسك وأتغافل عن بعض ما يُوحى إليّ ولكنّ البعض الآخر يُلحّ لتكون هذه الكلمات.

الثورة الّتي لا يقودها الوعي تتحوّل إلى إرهاب والثورة الّتي يغدق عليها المال تتحوّل إلى لصوص ومجرمين.

«فون نجوين جياب»

عندما تتعارض الثورة مع شبابها فإنّ الثورة على خطإ.

«جمال عبد النّاصر»

إذا الشعب يوما أراد الحياة، فلا بدّ أن يستجيب القدر.

«أبو القاسم الشّابي»

- ١ -

لا يعلم «مَهدي» ما الّذي دفعه إلى أنْ يُقبل على مثل هذا الصنيع، ليس من عاداته احتقار المرأة وتعنيفها، زوجته الإيطالية «مريا» في غاية الحُسن والجمال والوقار و الثقافة والتهذيب، لم تعامله يوماً معاملة قاسية ولا نقدت تصرّفه البربري المتعجرف معها، ومع ذلك، يمتصّ رحيق جمالها ويستنزف أموالها يوماً بعد يوم وهي لا تبالي.

قد تكون أحبّته بعمق ليس له مثيل وقد تكون تلك طبائعها لا تبالي بالمادة، في المقابل هو لا «يشبع» من ممارستها إلى حدّ التعجرف ولا يتوانى في إسراف أموالها إلى حدّ التبذير.

كان يجلس قبالة البحر في ليلة شتوية هوجاء وهو يتساءل: أهذا حُمق أم تَعَجرُف؟ لم يفهم هو نفسه لِمَ أقبَل على ذلك؟ فهي لا تمنعه منها ولا تحرمه أموالها الكثيرة، أغدَقَت عليه حبّها وحنانها ما لم تهبه أُمّ لابنها ومع ذلك عنّفها بطريقة وحشية ومزّق جسدها إرباً إرباً إلى حدّ لم تقوَ بعده على السير لأيّام.

تأمّل في الضفّة الأخرى من البحر فزفر زفيراً قويّاً مدويّاً

مُماثلاً لدويّ القهر الكامن فيه، كأنّه يُلقي تنهّداته نحو الوجهة الأخرى، أو كأنّه يُلقي بها نَحوَ العدم.

ثمّ أعاد السؤال نفسه كأنّه يبحث عن إجابة تاهت عنه في منعطفات العدم: هل العيب فيها حتّى أُلقي عليها جسدي المتعجرف؟ أم هل العيب كامن في شخصيتي البربرية؟! لمَ أُوجّهُ لها لكمات ملاكم محترف في حلبة المصارعة! تُرى كم من كسر أصابها؟! وكم من ألم سبّبته لها! وكم من حيرة تَدّفقت نحو كيانها بحثا عن سبب التعجرف المفاجئ؟

لقد وهبته هذه المرأة حناناً لا يوصف، وأخرجته من براكين القهر، كان رجلاً بلا سند فوهبته العِزّة، ورجلاً بلا وقار فأهدته الكبرياء، ولكنّه ردّ الجمال بالقبح والحنان بالوحشية.

لعلّه لَم يَغفر لها ذلك الفعل الشنيع الّذي أقدمت عليه لما كان يشكو الفقر والحاجة والخصاصة، ولكن لتلك الحادثة أسبابا أجبرتها على ذلك، ثمّ إنّها كفّرت عن ذنبها فوهبته مالها وجمالها، فأضحى معها يعيش عيشة هانئة زهاء عقدين من الزمن.

تقدّم من البحر يتهادى والتقط بعض الحصى وطفق يُلقي الواحدة تلو الأخرى في الماء، لكن تلك الحصى لم تُحدث أيّ أثر فالبحر هائج هياجاً غير طبيعي كأنّه يثور على واقع مّا، لم يكُفّ عن الرمي كأنّه يدفع هيجان البحر عنه إلى الضفّة الأخرى، تشنّج وهو يُصارع البحر العنيد فلم يقبل الهزيمة،

منذ زمن قطع مع الهزائم المتتالية في حياته ولكن قوّة البحر تبدو كالقدر أشدّ قوّة وتجبّرا.

أزعجه الهاتف الجوّال برنينه المتواصل، إنّها زوجته على الرغم من إهاناته لها لم تنقطع عن السؤال عنه، يبدو أنّ حبها له قد تغلغل في أعماق كيانها، تلك هي المرأة الغربية إذا عشقت قدّمت كلّ التضحيات دون تردّد، وذلك حال «مريا» معه، منذ أكثر من عشرين سنة لم تكفّ يوما عن حبّه ولا عصت له طلبا، اكتفت به وبتربية بنتيها ونصّبته ملكاً على عائلتها ورئيساً على ممتلكاتها.

أغلق الهاتف الجوّال، لا يعرف كيف يُجيب زوجته ويبرّر ذلك التصرّف الّذي أقدم عليه، أو لعلّه انزعج منها ومن رنّات هاتفها المزعجة، هو الآن لا يُطيق نفسه، كَرِهَ الاسم والكائن الجسدي والعقل الّذي يحمله، لا رغبة له سوى إلقاء نفسه في اليمّ حتّى يتطهّر من براثن العُهر الّذي لزمه، لقد تخطّى الأربعين منذ سنوات فعاد بذاكرته إلى أيّام خلت وسنوات ظلّت مطبوعة في ذهنه لا يُمكنها أن تُمّحي بيُسر، كان يعتقد أنّه سنّ النبوءة ونتاج تجربة اكتملت ونضجت، وكأنّه اليوم يعود إلى مرحلة المراهقة تشنج مبالغ فيه وسوء إدارة لما حلّ به.

تبادر إلى ذهنه سؤال معتاد طالما راوده وهو قيمة التنازلات

الّتي قدّمها، فلازمه حتّى بدا سؤالا حتميّا: أكان ما أقدم عليه انتهازية أم تنازلاً ؟! الآن فقط تفطّن إلى هذا السؤال الجوهري؟ فلماذا إذن يعنّف زوجته بهذا القدر إن كان هو المسؤول عن أفعاله؟! سؤال آخر تنبّه إليه، ولكنّه بقدر ما يلحّ في السؤال يعجز عن الجواب لأنّه، بلا ريب، ما اعتاد الأجوبة اليقينية وما أدرك اليقين نفسه بل لعلّه لم يتدرّب بعد على كيفية تعبيد طرق حياته.

تأمّل زُرقَة البحر المدهشة ثانية فاحتار في العمق الّذي يحويه والامتداد الذي يشمله، البحر شاسع غير محدود وعميق إلى أبعد ما يكون بخلافه، حيث بدا سطحياً في كلّ شيء، أصابه حزن عميق وكَرِه التأمّل في اللّامحدود، فبين العمق والسطحية تكمن مأساته.

أخرج الهاتف الجوّال، ضغط على الزرّ ففتح «الفايسبوك»، قلّب الصفحة مراراً وتكراراً، الثورة تستمرّ أو لعلّها تصل إلى أوجها، كلّ المدن اشتعلت نيرانها والضحايا يتساقطون شهداء للوطن الواحد تلو الآخر ومع ذلك لا أحد يتراجع عمّا أقدم عليه، شاهد الكثير من« الفيديوهات» الواقعية للتصادم بين شباب الثورة والبوليس.

أرجع الصفحة إلى الأعلى فأصيب بدوار فرعشة كاد على إثرها يفقد الوعي:

الليلة يُقدّم الرئيس خطابه الثالث ليقنع التونسيين

بالكفّ عن الحرق والتخريب وتدمير الوطن.

لم يفهم تلك المتناقضات وهو في بلاد الغربة، مواقع تُمجّد الثورة وتؤكّد قرب انتهاء حكم النظام الغاشم وأخرى تصف الثوريين بعصابات النهب والحرق والتدمير، وبلاده هي بلاد التناقضات بامتياز.

أزاح الهاتف من أمام عينيه فعادت به الذاكرة إلى نهاية ثمانينات القرن العشرين وهو طالب جامعي معارض يُحسب له ألف حساب وخصوصاً حينما يصعد المنابر، تنهّد ملء غيظه ثمّ أعاد تقليب الصفحات، أغلق الهاتف ثانية كأنّه يُغلق براكين الغضب الّتي حلّت به دُفعة واحدة ورمى به نحو البحر كأنه يُزيح عنه سنينَ مرّت لا يعرف كيف يُعيدها أو يستعيدها أو يلفظها من ذاكرته تماماً.

امتطى سيّارته الفارهة فصوّب قلقله نحو المدينة يريد أن يقتل الوجع الّذي حلّ به فجأة، توقّف أمام حانة فاخرة راغباً في أن يُشفي غليله في الشرب، ذلك هو دواؤه الوحيد: النسيان أو الابتعاد قدر الإمكان عمّا يحدث في «قرطاج».

حاول أن يزيح مرارة الخيبة مع كلّ كأس يحتسيها، فمرارة الكأس تماماً كمرارة الخيبة الّتي أصابته، ربّما، الندم لا ينفع في هذه اللحظة بالذّات.

هرب قديماً من وجعه وها هو الآن يهرب من وجع آخر،

أَكُتِب عليه الوجع أبداً؟ ولكن الأمر المحيّر أنّه هرب باعتباره معارضاً وحاول أن يعود إلى الوطن موالياً وتلك الطّامة الكبرى، إنّ أمره مُربِك إرباكا لا منطق له، لِمَ يمقت هذه الثورة الّتي اندلعت في بلده منذ أيّام؟! هو يعرف أنّ الأحوال في موطنه آيلة إلى الانفجار، ولكن لم يتوقّع أن يكون الانفجار بهذا الحجم وبهذا الشكل وبهذه القوّة.

بعنف رمى بكأس أخرى في جوفه فتدافعت الكؤوس حتّى ذهب عنه الصحو ومع ذلك لم ينقطع عن التفكير في موطنه، لأنّ عمق المأساة يولّد عمق التفكير، بدا المكان غير ملائم لمآسيه، إنّه مكان فاخر يوحي بالهدوء غير ملائم للثورة الّتي تحتدّ بداخله، وإذا همّ بالانفجار لا يجد من يحتمل عنفوانه وسطوته، غيّر المكان، كره هؤلاء الرّافِلين في حرير الحضارة والتمدّن والمجالات الكاذبة، هو متطفّل عنهم لأنّه كان متوحّشاً شرساً متجبّراً وعنيفاً، عاد إلى حقيقته فكلّ الّذي عاشه في روما يقول عنه إنّه مجرّد رياء.

قصد حاناً شعبياً، له رغبة جامحة في العراك، جسده يتراقص من فرط الحرارة، ذلك هو طبعه لا سيما لمّا كان طالباً في كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا يهدأ له بال.

طفق يشرب من زجاجة الخمرة مباشرة، يريد أن يُفني جبروته في الخمرة إذْ لم يجد منْ ينزل إلي ساحة الوغى

لمبارزته، سَكِرَ فأخذ في التطفّل على رواد الحانة، فحتّى تلك الصفعات الّتي وجّهها إلى زوجته لم تُهدّئ من روعه، يُريد أن يَقتل أو يُقتل حتّى يُنهي مأساته بنهاية جسده أو بانتصاره.

أخذ زجاجة الخمر وجعل ينثر الخمر على رؤوس السكّارى وهو يلعن الدهر الّذي جمعه بهم، حوّل لهجة خطابه إلى التعجرف ومع ذلك لاذ الجميع بالصمت، نظروا إليه بعين الريبة، إذ يوحي لباسه الفاخر ببعض الثراء، اعتقد الجميع أنّه من أصحاب السلطة ولكن ذلك «الجزائري» كفّ عن السكوت والصمت، وتدفّقت بداخله الدماء العربية الحارّة وأخذ يقذف الكراسي يمنة ويسرة إلى أن وصل إليه فسدّد نحوه لكمة زحزحته عن مكانه، ارتعش فعاد إليه واحتدّ الصراع بينهما وتتالت اللكمات إلى أن عمّت الفوضى وأحاط البوليس بالمكان.

في قسم الأمن الوطني الإيطالي أظهر بطاقة هوّيته الّتي تحيل إلى جنسيته الإيطالية وإلى اسمه الإفرنجي « جون بيار» حتّى يفلت من العقاب بكفالة مالية بسيطة خصوصاً إذا كان خصمه من المهاجرين العرب، تنكّر لهويته وليس من عاداته فعل ذلك ولكن ما عَمَّق من تأنيب الضمير هو الخطاب العنيف الّذي وجهه إليه الجزائري:

- «ما ينكر أصله كان ....»

أجاب بالعنف نفسه:

- ما أكثر الكلاب الشريدة في هذا العصر.

قال الجزائري:

- على الرغم من كونها شريدة فإنّها عفيفة تحنّ إلى موطنها ولا تقتات من فضلات مغتصبها.

لم يُطِق ذلك، خرج من قسم الشرطة مقهوراً، اشتدّ به الوجع، كأنّ ابن عمّه الجزائري وضع الإصبع على الدّاء وخبر أسباب معاناته.

جال بسيّارته الفارهة جُلّ طرقات روما، سارت السيّارة بسرعة جنونية تجوب مختلف المنعطفات الفرعية منها والرئيسة كأنّها الأوجاع تجوب أمعاءه، كم تمنّى لو يُصاب ببعض الجنون وإن لبرهة من الزمن حتّى يتمكّن من الانفلات من الوجع الّذي حلّ بداخله، ولكن ما من حيلة سوى الرضوخ لما تُمليه عليه أقداره، رغب في العودة إلى شاطئ البحر لكنّه هائج هياجاً غير مألوف يزيد من اختناقه، أوقف سيّارته في إحدى محطّات البنزين وأشعل سيجارة وأخذ نفسا بعنف ثمّ تنهّد تنهيدة طويلة دمعت على إثرها عيناه، تساءل:

- أيّ مأساة هذه الّتي تجعل الإنسان يُهجّر عن موطنه بغير ذنب؟! أنا لم أقترف أيّ ذنب بل كنت شديد الحرص على إنشاء وطن ديمقراطيّ سليم، وها أنا الآن أُوصَف بصفات الإهانة والمذلّة، أيّ مأساة هذه !!

أخذ نفَسا جديدا من السيجارة أعمق من الأوّل ونفثه

نحو المُطلق كأنّ يجرّب الإبحار في اللاّنهاية، نظر في ساعته: قرب منتصف الليل، تذكّر ابن عمّه الجزائري ففارت في نفسه دماء العروبة، لا بدّ أنّه الآن مسجون وينام بلا غطاء ولا فراش ويُعامل معاملة قاسية ظالمة، فالبوليس الإيطالي شديد النقمة على المهاجرين لا سيما مع الأزمة الاقتصادية الحادة، فالمهاجر يعمل لساعات طوال بربع الأجر وهو ما زاد من نسبة البطالة عند الإيطاليين غير القادرين على الاشتغال في الأعمال الشّاقة، وهذا ما أدّى بالحكومة الإيطالية إلى تشديد المراقبة.

صوّب سيّارته بسرعة قصوى نحو قسم الشرطة فوجد الجزائري قابعا في السجن مثلما توقّع، وعد بدفع الكفالة الخاصّة به وأخرجه من سجن التوقيف، خاطبه بلطف ورأسه إلى الأرض:

- أُقَدّم كلّ اعتذاراتي لما سببته لك من ألم، ما قصدت أبداً الإهانة أو استغلال النفوذ أو المال والجاه تجاه بني أمّتي.

- هوّن عليك يا أخا العرب فنحن من طينة واحدة، آدميون في حالة الهدوء إلى أبعد الحدود وشياطين إذا ارتفعت حرارة الطين المصنوعين منه، ألسنا بنصف شيطان ونصف ملاك لا سيما نحن العرب؟!

شغله التفكير في مأساته عن الإجابة والتواصل مع رفيقه، فتح الباب دون وعي وامتطي السيّارة ثمّ همّ بالمغادرة غير آبه

بمن معه، لكنه استفاق فجأة فلم يجد صديقه، أنزل الزجاج وأومأ إليه أن اصعد معتذراً ثانية عن هذا الشرود الّذي أصابه.

قال الجزائري:

- ما بالك يا أخ، أظنّ أنّك لست على ما يُرام، أما من خدمة؟

قال بصوت منخفض يكاد لا يُسمع:

- مأساة الإنسان إذا كان بلا وطن ولا أرض، أُنظر إخواننا الفلسطينيين كأنّهم أرواح بلا أجساد، وما قيمة الرّوح إذا لم تجد جسدا يأويها.

أجاب الرفيق: أيّ مأساة تعيش؟

مأساة إنسان شرّد عن وطنه بغير ذنب.

أنا أعرف مأساة شقيقتنا الصغرى منذ زهاء ربع قرن، ظلم واستبداد وتشريد، ولكن ها هي الثورة على الأبواب، لعلّ الفرج يأتي قريبا وتعود إلى أنسك.

- آه... أيّ أنس تقصد؟ تلك الطّامة الكبرى، أن تحلّ الثورة ويأتي الشرفاء وطنهم.

نظر إليه بتعجّب وكأنّه يتراجع إلى الخلف:

- أولست من الشرفاء؟؟؟؟!!!!

- شريف في جلباب انتهازي حقير، ووطنيّ في جلباب خائن.

ثمّ واصل: لا عليك من حكايتي، أنت كيف حالك في إيطاليا، كيف تتعامل مع هذه الأزمة الاقتصادية العالمية الخانقة؟؟

- لا عمل ولا مأوى.

- كيف تقضّي يومك ومن أين تأتيك الأموال؟
- بعض المدّخرات وإعانة أصحاب الخير.
- ما رأيك في أن تكون عاملاً في شركتي بمرتّب قارّ؟
- إذا كانت ردّ إهانة فهذه إهانة أخرى.
- لا.. لا.. بل هذه صفات عربي شهم، وأغلب عُمّال شركتي هم ممّن قست عليهم الظروف من العرب، أنا عربي وإن طال عليّ الزمان في بلاد الغربة.
- ولمَ لا تعود إلى موطنك؟
- إنّها الثورة،والمأساة أشدّ إذا نجحت!!
لا تعجب، ليست ثورة تونسية خالصة إنّما المقصود تقسيم الجزائر إلى دولتين أو الاستيلاء على الثروات الليبية.
- أتعلم أنا دارس تاريخ ولكنّي لم أتنبّه بعد إلى مقصود الثورة.
- كان عليك أن تكون دارسا للجغرافيا، فالحرب جغرافية إقليمية لا علاقة لها بالتاريخ، الغرب لا يهمّه تاريخ الاستبداد العربي بل غايته كيفيّة السيطرة على الجغرافيا.
- لقد تحوّلت إلى محلّل سياسي.. ولكن ما دخل الغرب؟
- أوَتظنّ أنّنا مستقلّون؟! الاستعمار ينخر قلوبنا وعقولنا وثرواتنا أكثر من ذي قبل.
- أأنت قومي؟
- لا قومي، ولا يميني، ولا إسلامي، ولا يساري... ولا أفقه في السياسة شيئا، إنّما أنا عامل بسيط.
- أظنّ أنّنا نجد مبرّراً لضعفنا ووهننا باتّهام الغرب،

فالأجدر بنا أن نكون في مستوى تطوّره، فلا ننكر أنّه قَدّم للعالم ولنا خدمات جليلة من جهة التطوّر العلمي، هذا التطوّر الطبّي والتكنولوجي لولا الغرب لما وصل إلينا وحقّق رفاهيتنا، فهم إذن يأخذون هذه المعادن كي يطوّروا العالم وينفعوننا بها.

- فليكن هو ذاك باختلاف بعض وجهات النظر، و لكن وجب أن نجد التعادلية الممكنة وهو أمر غير ممكن.

- لعلّه تطفّلٌ منّي ولكن ما سبب خوفك من نجاح الثورة، قد يكون في الثورة خير لتونس.

- دعك منّي ومن الثورة، ألا يوجد عندك آلة عجيبة ممّا أنتج الغرب تساعدنا على النظر في مجريات الثورة، الليلة خطب الرئيس ولم أطّلع على مضمون الخطاب، عليّ أن أتابع ما يجري لعلّ الأحداث تنقلب في صالحي.

- هاتفي الجوّال لا غير، وهو قديم وبطيء، لا يشتغل بالسرعة المطلوبة.

- مهما كان نوعه، المهم أن يمكّننا من الاطّلاع على محتوى الخطاب.

فتح الهاتف بارتباك شديد، قلّب الصفحات، ها هو الخطاب، توقّف عند هذه الجملة:

« آنا فهمتكم.. البطّال..المحتاج.. السياسي...»

تفطّن منذ الوهلة الأولى إلى أنّه خطاب فاشل خصوصاً

إزاء ذلك التلعثم والارتباك الّذي أصاب الرئيس، وليس من عاداته الارتباك والخوف.

تأمّل تعليقات الجماهير المصاحبة للخطاب، أغلبها توحي بانتهاء عهد.

- «الرئيس» قد انتهي، قال ذلك وشفتاه ترتعشان.

نظر إلى رفيقه الجزائري وأردف القول: لقد انتهيت فعلا، لم يعد لي أمل في الرجوع إلى وطني.

- لِمَ الخوف؟ الحرية تجوب وطنكم وعهد الدكتاتورية قد ولّى وانتهى، الأجدر بك أن تَطير فرحاً وتعانق سماء الحريّة، جنّحْ يا أخ ولا تخش شيئا.

- آه... منذ أكثر من سنة وزبانية الرئيس تشتغل كي تمهّد انضمامي إلى الحزب الحاكم بعد أن عُرفت معارضاً شرساً، وما يقهر أنّ كلّ المعارضة تعلم ذلك، ثمّ أضاف:

- اتّفاقية ١٨ أكتوبر وهي أنّ جلّ أحزاب المعارضة أمضت اتّفاقا ضد الحكم الغاشم، وأنا تنكّرت لذلك ورفضت الاتّفاق، والمصيبة الكبرى أنّ الرئيس هو من دمّر مستقبلي السياسي. أنا لا أعرف كيف تؤكل الكتف.

- (باستغراب)... أنا لم أفهم شيئا!!!

- الأفضل ألاّ تفهم، هي قصّة كبرى، لا بدّ أن أعود إلى بداية القصّة كي تفهم، ومرّة أخرى أقول لك: الأفضل ألاّ تفهم...

- ٢ -

لم يهدأ تلك الليلة، ولم تأخذه سِنة من نوم، ظلّ ساهراً في سيّارته حدّ الفجر بعد أن أوصل الجزائريّ إلى مقرّ سكناه حيث تعاهدا على الالتقاء صباحاً، فكّر طيلة الليل، في خساراته المتعدّدة، استعاد - خلال سهره من منتصف الليل إلى الفجر - جُلّ ذكريات الماضي، منذ حصوله على البكالوريا ثمّ المرحلة الجامعية في كليّة ٩ «أفريل» حيث يدرس علم التّاريخ، ثمّ سبب هجرته إلى إيطاليا.

استعاد زُهاء خُمس قرن فبكى حرقة على ضياعها هباء، لم تدمع عيناه أيّام الجمر حين كان يقاتل من أجل نشر مبادئه ودفاعاً عن الوطنية، ولكنّه اليوم يبكي نفسه وماضيه المغدور، نعم لم يكن المتسبب في تلك الخسارات ولكنه يتحمّل جزءاً لا بأس به من مأساته، لو تمسّك بما يؤمن به لما وصل إلى هذه الحُرقة والزَيف والخُسران، اللّعنة الآن تُصيبه من حيث لا يتوقّع ولا يحتسب.

مع دبيب الحركة في المدينة فَارَق سيّارته فاشترى هاتفاً جوّالاً حتّى يستكشف مُجريات الثورة من جديد، يبدو الشارع الرمز إلى الآن في هدوء تامّ لا توحي أيّ حركة بمظاهر مواصلة

الثورة، تنقّل في معظم القنوات الإخبارية، أغلبها تُحلّل خطاب الرئيس، فتراوحت بين التأييد والرفض، اطمأنّ قلبه قليلاً ودبّت في عروقه بعض الحياة.

اتّجه نحو الجزائري حتّى يفي بما وعده ليلة البارحة، جلسا في المقهى يتجاذبان أطراف الحديث، الثورة تتكرّر على ألسنة كلّ النّاس، في القنوات التلفزيونية، على الأثير، في الصحف الورقية والإلكترونية وغيرها...

خاطبه الصديق الجزائريّ وهو يحتسي قهوته السريعة:

- كيف قضيت ليلة البارحة؟ كنت قلقاً إلى أبعد ما يكون.

- لم تأخذني سِنة من نوم.. الإحساس بالقلق والندم أرهقاني.. كأنّي مصاب بهستيريا القهر.

- أنا أعجب لهذا الغموض الّذي يعتريك.. إن كنت لا تُصرّح فلَمِّح إلى مُصابك؟

- كما قلت: قصّة طويلة تستدعي رحلة من القهر.

- إلى أين وصلت الأحداث؟ ما دُمت كتوما إلى هذا الحدّ.

- إنّها بين المدّ والجزر.. ولا نعلم إلا مَ ستؤول؟

ثمّ أردف: دعنا من هذا.. ولسنا هنا لنناقش أمر الثورة.

أخرج هاتفه الجوّال الّذي اشتراه هذا الصباح خصّيصاً لتتبّع الأخبار وضغط على بعض الأرقام، اتّصل بمدير شركته حتّى يتوسّط لصديقه في عمل.

تخاطبا بلغة إيطالية لم يفهم الصديق الجزائريّ معظمها

ثمّ أغلق هاتفه الجوّال وقد احمرّ وجهه، استدار بعد أن ألقى نظرة في سقف المقهى ثمّ نفث دخّان سيجارته واحتسى من قهوته.

حملق الجزائري في وجهه مخاطبا:

- أرجو أن يكون هناك خير؟؟!!

اعتدل في جلسته وعدّل من نفسه قائلا:

- الأزمة الاقتصادية تُحاصرنا ونحن مضطرّون إلى تسريح بعض العُمال.

- فهمت لا داعي للإحراج.

- لا تقلق كنت وعدتك، هذه سيّارتي خذها فهي لك هدية منّي والهدية لا تُردّ، ثمّ سأهبك ما يُعيلك لأشهر من مالي، اعتبرها سُلفة تُردّ ساعة تحسّن وضعك المالي.

- هذا كثير..

قاطعه:

- إن لم تعتبرني أخاً لك فهذا أمر مؤرق.. الغريب للغريب نسيب.. ونحن عرب غرباء.. يوم لنا ويوم لك.. لا ترفض.

- نتغدّى اليوم سويّا.. ثمّ نقوم برحلة ترفيهيّة في المساء ونختمها بكأس، أسرد لك خلال غمرة النسيان الّتي تحلّ بي مع كلّ كأس، قصّة حياتي.

- اتّفقنا. فلا شغل لي. وأنا بطبعي معطّل عن العمل.

***

تناثر دخان سيجارته وهو يقذف بأوّل كأس في جوفه، تأمّل مختلف نشرات الأخبار العربية والعالمية.. جلّها تُجمع على هروب الرئيس التونسي، وجميعها الآن تُمجّد الثورة.. لا أحد ينكر الآن الظلم والاستبداد والديكتاتورية والحالة الاقتصادية المتدهورة الّتي كانت عليها البلاد، ولكن الفوضى تعمّ.

بدأت عمليات النهب والسلب مبكّراً، الجميع يسطو على الشركات التجارية الكبرى وحتّى الصغرى، « كما تكونوا يُولّى عليكم». هذه حكمة الأوّلين.. وما أخطؤوا في حكمة.

ولكن كيف لهذا الرجل القويّ أن يفرّ من «قرطاج» بهذه السهولة؟!

لا شكّ في أن هذا السؤال من أكثر الأسئلة غموضا.. لم تستطع قوى معارضة شرسة يمينية ويسارية أن تزحزحه عن الكرسي.. وحتّى بعد اتّفاق ١٨ أكتوبر.

الأقوال متضاربة الآن عن كيفية الخروج وأسبابه ودواعيه وتداعياته، ولكن الجميع أجمع على قوّة الشعب لا سيما وهو أمام وزارة الداخلية في الشارع الكبير يهتف بصوت واحد «Dégage».

الشَعب العظيم يهتف: «الرئيس هرب يا توانسا».

الشَعب العظيم يهتف: «هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية».

طفق يتأمّل المطلق، «تونس» الأنس تتحرّر من براكين القهر الّتي ظلّت تحاصرها منذ قرون: الاستعمار العثماني فالفرنسي ثمّ الأنظمة الديكتاتورية الغاشمة.. أهذه فرحة أم حزن؟ عليّ أن أفرح بكلّ ما أوتيت من فرحة وبكلّ ما أوتيت من غبطة.. هو القهر لازمني لسنين، وإن كنتُ من غير المستفيدين من هذا فعليّ أن أحتفل الآن بانتهاء عهد الظلم والاستبداد.

لا أحد له الفضل، لا انقلاباً حصل، ولا دماء، ولا ظلم بعد اليوم.. قديماً سمعنا هذا الخطاب.. ولكن اليوم الشعب العظيم هو الضامن.

لا أحد له الفضل، ثورة مفاجئة للجميع، لم يكن أحد يتوقّع قدرة هذا الشعب العظيم على هذا الإنجاز.. والشعب العظيم اليوم هو الضامن.

جعل يشرب بانتشاء كأنّه يحوّل الألم الّذي أصابه والحزن الّذي ألمّ به والقهر الّذي انتابه إلى احتفاء... يشرب انتشاء واحتفالاً واحتفاء..

صعد فوق الطاولة بعد أن أزاح المشروب جانباً. خاطب النادل وعيناه موجّهة صوب الحاضرين:

- الليلة المشروبات كلّها على حسابي أنا التونسي النقيّ.

صفّق الجميع إعجاباً بهذه الثورة المجيدة والكرم الّذي لا مثيل له، ازداد غبطة وانتشاء بهذا التمجيد وهذه التهاني الّتي وصلته من كلّ الحاضرين، ثمّ ازداد فرحاً عندما رفضت أغلب

الدول الصديقة والشقيقة استقبال هذا الرجل تضامناً منها مع الثورة التونسية واعترافاً بمعاناة الشعب.

وهو في منتهى النشوة لم يتذكّر ماضيه مع رمز السلطة، جرّد نفسه من منعطفات الماضي الحزينة.. لم يشأ أن يدغدغ أحلامه السعيدة بواقع مرير، لكونه لا يعرف الآن أيُحسب ضمن التيّار الانتهازي الموافق للسلطة والمنافق، أم ضمن التيّار المناضل المقهور؟ بل هي تلك مأساته الآن.. ولكنّه يتجاوزها بنشوة الاحتفال ولعلّ المستقبل يفتح أمامه أبواب النعيم.

قلّب صفحات «الفايسبوك» في هاتفه الجوّال الّذي أمامه، بعد أن جلس ونزع معطفه نتيجة الحرارة الّتي أصابته من جرّاء رقصاته الاحتفائية المتتالية.

الثورة حدثٌ مفاجئ للجميع، فكّر في ذلك وفي إمكان الرجوع إلى وطنه، الجميع الآن سواسية يرفلون في مستنقع واحد أو لعلّهم يحلّقون في سماء واحدة.. لا أحد له الفضل في إخراج رمز الظلم والاستبداد، هو عالِم بعجز كلّ أحزاب المعارضة عن إزاحة هرم السلطة.. حتّى تلك الاتّفاقات يدرك أنّها لم تُغيّر شيئاً.. أضحى الآن يتساوى معهم في كلّ شيء.. الثورة هي الّتي جعلت كلّ التونسيين في كفّة واحدة.

وهو في غفلة يفكّر في مصيره دخل الجزائري مرتبكاً بين السعادة والحزن، الخوف والفرح، التقدّم والتقهقروخاطبه:

- إنّها الثورة!

رفع رأسه في تيه:

- ماذا قلت؟

- قلت الثورةَ! الثورةَ!

- إنّها النعمة.

- ولكنّك لم تُبدِ تفاؤلاً بها من قبل!

- لقد انكشف السرّ.. ليس وراء الثورة من أحد، كلّ القنوات التلفزيونية تؤكّد ذلك.. إنّها ثورة شعبية ألا تعلم؟! وبات بإمكاني الرجوع إلى وطني.

... صمت ثمّ رفع رأسه بعد برهة قائلا:

- الأمر يُثير الاستغراب. أما من قائد للثورة؟

- إنّه الشعب العظيم.

- لعلّه كذلك. ولكن لنتفحّص ذلك من المصدر، القنوات التلفزيونية الرسمية قد تمرّر أخباراً حقيقية..قَلّبْ الصفحات.

نظر في إحداها فإذا بها تُمرّر مكالمات هاتفية للمواطنين تعلن عن هرب هذا واستسلام ذاك، وأخرى تُخبرعن عصابات النهب والسرقة، وثالثة تعلن عن عدد الضحايا.

خاطبه الرفيق:

- عُد بنا إلى القناة الأولى.

مذيعة تعلن بدأ الحوار السياسي موضوعه: أسباب الهروب وتداعياته.. في « البلاتو» تيارات سياسية مختلفة من اليمين واليساروالوسط، بدأت بتقديم الضيوف.

انتفض كديك مذبوح.. والتطمت شفتاه والتصقت ببعضها البعض.. وتنفّس ملء خساراته.. وكاد يسقط أرضاً لولا رفيقه الّذي أمسك بتلابيبه وأقعده على الكرسي.

قال: فا...طمة....فا...ط...مة، إنّها «فـــــــاطمة»!

- ومن تكون؟ تكلّم! أخبرْ!

...لي الويل. كيف سأواجهها، إنّها العقبة الكبرى أمام رجوعي.. كيف لي أن أواجهها من جديد، حتماً ستعلم بعودتي.. ستنبش خلفي.. ستفتح كُلّ الملفّات.. لن تنسى مصابها؟

تأمّل! إنّها بنفس القدرة والنشاط والعزيمة والحيوية.. استمع إلى ما تقول.

خطبت كما كانت تفعل في الجامعة:

- باسم الثورة أحيي شعبي تحية مناضلة قبعت تحت وطأة القهر والوجع، ثُمّ أُبارِك هذا الشباب الأبيّ الّذي أنجز ما لا يُمكن أن تنجزه جبابرة.. أنا اليوم أتناسى تاريخي النضالي وأقف إجلالاً واحتراماً لشباب الثورة، وأقول:

نظر إلى رفيقه فرافقته تنهّدات متتالية. استمع إلى بلاغة هذه المرأة العجيبة، إنّها من عجائب الدنيا، الأعجوبة الثامنة.

أنصتا إليها وهي تقول:

- تحيا «تونس» بشبابها وأبنائها ومواطنيها الصالحين الّذين رفضوا تسلّط الحُكم الغاشم المستعين برأس المال المتوحّش والإمبريالية الغادرة.. اليوم سنسعى إلى بناء حكم ديمقراطي شعبي تكون السلطة فيه للشعب وحده.. وسنسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، والنهوض بالطبقات الفقيرة المُنهكة من السياسات الفاشلة، والسعي إلى الحدّ من البطالة الشاملة للطبقات المهمّشة.

لا تهميش بعد اليوم.. لا تهميش بعد اليوم.. لا تهميش بعد اليوم..وعاش شباب «تونس».

أقفل الهاتف واحتسى كأسين متتاليين.. ثمّ قال بصوت خافت تسيطر عليه بعض التقطّع والحيرة:

- هو الخسران العظيم.

آه يا «فاطمة» يا رمز الوردة والزهرة والفلّ والياسمين والسمن والعسل والشهد... لِمَ تحلّين الليلة بين ضلوعي وتردّدين لحناً عربيّ الرنين؟

أيّ كائن أنت؟! يا رمز ولادتي وانبعاثي! ... وقهري...ووجعي.

يا رمز صبابتي وهيامي...

يا رمز وجودي...

أيّ حوّاء مثلك في الكون!

لن تلد أمّ مثلك،ولا الطبيعة قادرة على أن تُحيي شبيهة بك.

لمَ تدغدغين الآن بالذات، بعد طول قهر ووجع وتيه، حيرتي الّتي لا تنفكّ توجعني؟

كان الأجدر بي أن أكتب فيك قصائد أعذب من تلك الّتي كتبها امرئ القيس وألذّ.

«فاطمة» العزّة.. «فاطمة» الجمال والرقّة والعفوية... «فاطمة» الأصل... «فاطمة» الحسب والنسب.

من مدينة « فاقا» الضاربة في التّاريخ تنحدر.

أيّ « فاقا»: «باجة»: أهل فلاحة وعزّة وكرامة.

آه.. أيّ وجع يُصيبني الآن ... أنا على مشارف القهروالجنون.

.....

ثمّ أجهش بالبكاء.

سكت عنه الكلام كأنّه مصاب بداء جعله أصمّاً لا يسمع وأبكمَاً لا يتكلّم.

من هي «فاطمة» الّتي دفعته إلى مثل هذه الحيرة والوجع؟

أإلى هذا الحدّ هو مصاب بها ؟

ما السرّ الكامن وراء هذه الحيرة؟

سأله صديقه الجزائري كلّ هذه الأسئلة دفعة واحدة فأجاب كأنّه يتمتم أو يحدّث نفسه بصوت خافت ضعيف:

- «فاطمة» علّمتني: الحبّ.. الثورة.. الوفاء.. الكرم،ولكنّها لم تجد منّي سوى الوجع.. وها هي الآن تجني من الوجع الّتي تلقته حبّاً وعزّة وكرامة ووفاء وكرماً.. وها أنا أجني من كلّ هؤلاء الوجع.. هي معادلة لا تحقّقها إلاّ الطبيعة.

يا فاطمتي!

كتبت فيك ذات صفاء كلّ قصائدي وحلمت معك بإنجاب قبيلة تطهّر بنا دنس الكون.. فإذا بي قد دنّست طهارتك ذات بؤس، ولكنّك تولدين من دنسي طاهرة نقيّة.

أمطهّرة للدنس أنتِ!

العجب العجب... كلّما حللتِ بأرض تحوّلت من بور إلى خصب.

أعشتار أنت؟ أم مريم العذراء؟ أم علّيسة «قرطاج»؟.

كلّ ما قلت فيك من مديح فلا يُمكن أن أصف بعضاً من طُهرك وتعاليكِ وكبريائك.

أنت الأرض المطهّرة بصفات القداسة.

لعلّ القَدَر كان عادلاً لمّا فرّق بيننا فأنتِ القداسة وأنا الدنَس.

لا يمكن أن أشُكّ لحظة فيما تقولين.. ستُحوّلين البلاد جنّة أرضية.. وأنت تحسنين ما تصنعين.

كم في كلامك من بلاغة! وكم فيه من عقل وعاطفة جيّاشة صادقة.

لو سلّموك البلاد لكانت أرضاً خصبة.

وأنا أكثر العالِمين بفطنتك ونباهتك وقدرتك.

قاطعه الجزائري:

- حوّلتَ «فاطمة» إلى قدّيسة.. من تكون هذه الّتي أسرت كيانك وجعلتك رجلاً بلا عقل؟ أكلّ هذا الحزن من أجل

«فاطمة»؟

- آه.. وألف آه.. لو عرفت «فاطمة» لما ظلّ لك عقل! لأنها هي العقل.

آه.. وألف آه.. لو عرفت «فاطمة» لما بقي لك جمال! لأنّها هي الجمال والحسن.

أتعرف ما قال فيها امرئ القيس ؟

- أتريد أن أعرف منك قصّتك و«فاطمة» و«تونس»؟

- هي لك فأنصت.

- ٣ -

ذلك اليوم كان شديد الحرارة، العشر الأواخر من الشهر السادس: شهر «جوان». قرُب منتصف النهار وقاربت معه زقزقة عصافير البطن، كان أبي رئيس العمّال في معمل الرخام. ومن عادة أمّي أن تدبّ لمّا تقف الشمس في المنتصف لتحمل له لقمة « الغداء» البسيط.

في الحقيقة، لم يكن أبي من المتلذّذين بالتهام أصناف الأطعمة. كسرة يابسة تكفيه مع «شربة ماء» وكأس من الشاي يدغدغ ذبذبات دماغه. كان متزهّدا حتّى في ألفاظه، لا ينطق إلاّ الضروري من الكلام، يعشق كثيراً الصمت والتأمّل في المطلق كأنّه يبحث عن مفهوم الوجود اللاّمتناهي.

في ذلك اليوم مللت الانتظار، في الساعة الخامسة مساء تُعلن نتائج البكالوريا، لم يعد لي صبر والوقت يتكاسل عمداً فتقبض الدقائق على الثواني فتعطّل سرعتها المعهودة، قررت أن أزور والدي وأزوّده بلقمة الغداء بدل أمّي المرهقة من طول المسافة، ولأمرّر الوقت الملعون الّذي يُحاصرني أينما هممت كأنّه يطوق بي من كلّ جانب.

كنت أجوب الثنايا الضيّقة المحاصرة بالزرع من هنا

وهناك. ابتعد عن هاته فألتطم بأخرى تُثير فيّ قشعريرة لا تُطاق، أفكّر في النتائج وأنا على يقين بأن النجاح حليفي، كلّ الاختبارات كانت في المتناول وأنا الّذي لم يعرف الرسوب يوماً بل كنت متفوقاً منذ مرحلة الابتدائي ذلك أنّي حصلت على المرتبة الأولى في ولايتي في مناظرة «السيزيام».

كان قلقي وتوتّري حول الأعداد الّتي سأحصل عليها: هل تمكّنني من دراسة القانون مثلما أريد، أم هل تكون عائقا أمامي؟ هذا ما أرهق تفكيري، يُضاف إليه أمر آخر أكثر أهميّة: هل سيوافق أبي على دخولي الجامعة أم هل سيكون مرتّبه المحدود عائقا؟

هذا الّذي أرهقني وأقلقني طيلة أيّام انتظار النتائج خلاف بقية زملائي، وخاصّة صديقيّ «فوّاز» ابن العمدة و «عبد الودود» ابن أحد الفلاّحين في المنطقة، كانا على يقين من دخولهما الجامعة نظراً لقدرة عائلتيهما توفير مصاريف الدراسة.

كان أبي بالكاد يوفّر لقمة العيش، فمرتّبه الّذي لا يكفي لإعالة شخص واحد يكفينا نحن أبناؤه الخمسة وجدتي وأمّي بفضل حُسن تدبيره، لم يشْك يوما من ضنك العيش، كثيرا ما يردّد « الحمد لله على النعمة» وإن كان عشاؤه خبزا و «بعض الزيتونات».

أمّي أيضا كانت امرأة حكيمة. لا يمرّ الصيف إلاّ وأحضرت ما يعولنا لسنة كاملة، تخرج للحقول مع نسوة الحيّ ويجمعن ما تناثر من حبّات القمح والشعير والحمص والعدس والفلفل

وغيرها من الخضر والغلال، فتجفّف وتُخزّن ما أمكن لها أن تخزّنه.

وإزاء هذا الوضع أكون أنانيا إذا دخلت الجامعة. فشهادة البكالوريا تمكّنني من الحصول على وظيفة محترمة أساعد بها عائلتي الفقيرة، ولكن طموحي وقدراتي لم يكونا محدودين.

بعد نصف ساعة من السير الدؤوب وصلت إلى المكان الموعود، وجدت أبي كعادته يتظلّل بشجرة الزيتون أمام المصنع وينتظر الغداء، استقبلني ببشاشته المعهودة وتساءل:

- ليس من عادتك المجيء.. ما السرّ في ذلك؟

- أنت تعلم يا أبي أنّ اليوم تعلن النتائج وأنا مللت الانتظار، جئت أطلّ على ابتسامتك وأقتل الوقت الّذي يمرّ متكاسلا الهوينى.

- ما عَهدتك بهذا الضعف.. أخائف أنت ؟

- لا يا أبي.. إنّما قلقي حول مستقبلي الغامض، وأنت أكثر العالمين بأنّي دائما من المتفوّقين.

- فهمت مقصدك.. لعلّ القدر يسطّر لك مصيرا حسنا.

- أمازلت تؤمن بالقدر يا أبي؟ كم من مناسبة قلت إنّ الأمور تتحدّد بالظّاهر، وأنّ البنية التحتية تحدّد البنية الفوقية، هذه نظريتي في الحياة.

- هذه فلسفة لا أفهمها.. ما أعلمه أنّ « كلّ شيْ بالمكتوب»، دعك من هذا وهيّا نتناول لقمة الغداء سويّا.

- كل أنت لا شهيّة لي.

ولمّا كان أبوه وبقية العمّال مستغرقين في تناول الغداء قام بجولة داخل أرجاء المصنع، كان ضخماً شاسعاً يدرّ على صاحبه أرباحا طائلة، ومع ذلك يتقشّف في الأجور، هذه هي الرأسمالية المتوحّشة، فكّر كثيراً في هذا الأمر. فكّر في ضرورة إيجاد معادلة حقيقية بين جميع أفراد الشعب، مع أنّ الفئة الغالبة في «تونس» هي الفئة المتوسّطة، ومع ذلك قال:

- لا بدّ من القضاء على هذا التوحّش.

عاد إلى والده بسرعة وقال:

- ما ضرّ لو أخذت إجازة هذا المساء وترافقني إلى المعهد لتشاركني فرحة النجاح، واليوم هو يوم الأحد يتزامن مع عطلتكم الأسبوعية، فنصف يوم لا يُنقص من مال صاحبه شيئا فهو لا ينفكّ يمتصّ جهودكم بأزهد الأثمان.

- هذا مستحيل يا بني، ينتظرنا عمل شاقّ: كمية من الرخام لا بدّ أن ننتهي من إنجازها نهاية هذا الشهر، فهي مُعدّة للتصدير للبلدان الأوروبية.

- ولكن هذا غير عادل وغير قانوني، فأنتم تشتغلون أضعاف السّاعات بأثمان أزهد ممّا يكون.

- لا بأس.. هي لقمة العيش.

- أنا لا أطيق هذا.. عليّ أن أغادر وإلاّ سأرتكب جريمة.

بسرعة نزل المدينة، لم يعد إلى المنزل اتّجه نحو المقهى حيث وجد صديقيه «فوّاز» و «عبد الودود». قال وشرارة الغضب تتطاير من عينيه:

- أيّ بؤس هذا. الاستغلال يستشري في البلاد كسرطان خبيث.

قال «فوّاز»: لا تقلق أيّها الاشتراكي اليافع، قريباً تكون محامياً أو مناضلاً جامعياً، ومهمّتك تكمن في إنجاح ما فشل فيه «أحمد بن صالح».

خاطبه بحماس: لا حقّ لك في إبداء الرأي يا سليل الفكر الدستوري، فعائلتك تتوارث المناصب أبا عن جدّ، فأبوك عمدة وكذلك جدّك، وقد يكون جدّ جدّك « صبايحي». وأنت تعرف من هم «الصبايحية».

ردّ ببرود: ما بك تحوّل النقاش إلى شتم؟ لن أردّ عليك في هذا اليوم العسير.

قال «عبد الودود»: يكفي جدالاً فأنا رأسي يكاد ينفطر خوفاً وأنتما تتجادلان جدالاً عقيما لا يُغني ولا يسمن.

قال بسخرية: ألا تؤمن بقضاء الله أيّها المؤمن اللطيف.

أنهى «حمّة» نادل المقهى النقاش بأسلوبه الساخر:

- ما هي مكافأتي إذا نجحتم في البكالوريا بفضل دعواتي: ثلاث قوارير فقط تكفيني.. واحدة من كلّ واحد.

قال «مهديّ»: لن ترى منّي ولو ربعها، أنا الأجدر بها، سأشرب الليلة احتفاء.

قال «عبد الودود»: أعوذ بالله.. أتساوم على الفضائل بالخبائث، ركعتان أشكر فيهما الله على فضله العظيم.

«فوّاز» بارتباك:.....

قاطعه «مهديّ»: قارورتان وركعتان، وأضاف بسخرية:

هذا مذهبكم.

ولم يكد «مهديّ» يُنهي الكلمة حتّى داهمهم أحد العمّال وهو يصرخ بأعلى صوته:

- أ.....أأأأأبوك.. أبوك أبوك يا «مهديّ».

قفز بحركة لا شعورية وأمسك العامل من قميصه بإحكام:

- ماذا حلّ به؟ فارقته منذ زمن قصير وهو على أحسن ما يرام.

- آلة القصّ...

ثمّ سكت عن الكلام. لم يقدر على وصف المشهد الموحش، تراءى في عينيه ارتباك شديد، العرق يتصبّب على جبينه وكامل جسده، ولسانه يلهث من فرط الركض. وجفناه يتراقصان خوفا وحيرة.

مشهد غريب أودى بأحد العمّال بل برئيسهم المباشر، ولكنّه في الحقيقة مشهد يتكرّر طيلة السنة، العمّال يشتغلون بلا حماية وأغلبهم بلا حقوق تضمن لهم بعض الكرامة، كلّ سنة يشيّعون زميلاً لهم إلى مقبرة النسيان، يبكون وهلة من الزمن ثمّ يتناسون، أو لعلّ الوجع هو الّذي ينسيهم وجع القهر والذلّ، ثمّ يستأنفون الاستعداد لتشييع جديد، اعتادوا ذلك وطريق المقبرة لم يعد طريقاً موحشاً بغاباته الكثيفة بل بما تمرّ عليه من جنائز، والطريق نفسه أضحى يتألّم: إلى متى الحزن؟!! ألا يمرّ موكب مفرح تتخلّله زغاريد الفرح؟!!

في هذه القرية الصغيرة لقمة العيش وعرة وعور الجبال الشاهقة المتعالية، فإن لم تكن صاحب أرض فإنّ القدر سيقذف بك إلى أحد مصانع الرخام المترامية على أطراف المدينة فلا تهب السكّان إلاّ البؤس.. أجر زهيد وغبار وتلوّث بيئي.

أغلب سكّان هذه المدينة الصغيرة – إن صحّ أنْ نصِفها بالمدينة - مصابون بأمراض خبيثة من التلوّث البيئي المنجرّ عن فضلات هذه المصانع، ورغم الشكاوى المتواصلة فلا أحد استمع إلى هذه المأساة أو أنصت إليها، كلّ مسؤول يأتي المدينة يحزم نصيبه من الهدايا الثمينة الّتي تتاهطل عليه منذ الأشهر الأولى ويفرّ بدون رجعة بعد أن ملأ مخازنه ذهباً وفضّة، لذلك تجده غير مبال بتأوّهات الفقراء والمحتاجين، أبوابه مفتوحة لخدمة أصحاب المال والنفوذ فقط، وكأنّ الفقراء لا عنوان لهم في الحياة سوى البؤس، ولا مفرّ لهم سوى التلوّث، ولا طعام لهم سوى الأتربة وفضلات المصانع، هم أناس من صنف ثان أو ثالث، لا يتساوون في نظر هؤلاء المسؤولين إلاّ مع الحيوانات البائسة.

ثمّ استفاق العامل من غيبوبته وقال:

- آلة قصّ الرخام قصّت أباك نصفين أو إحدى ساقيه.

دُهش «مهديّ» متسائلا: كيف ذلك؟؟!! أبي رئيس العملة، يُشرف على العمل فقط ولا يعمل منذ أصيب على كتفيه، كافأه صاحب المصنع بعمل قارّ شريطة ألاّ يقدّم شكوى

ضدّه. المصائب لا تكفّ، كم قلت له ونبّهته وطلبت منه أن يحصل على حقّه بالقانون ولكن ...

يفكّر في حال أبيه وهو يركض نحو المستشفى، ويستعيد ذكريات الظلم الذي لاقاه أبوه، فقد أفنى عمره في هذا المصنع اليوم يكون دوره، حسبته ابتعد عن الأعمال الشّاقة بعد تكليفه برئاسة العمّال.

حدّث أحدهم، فيما بعد، أنّ صاحب المصنع الّذي رفض أن يضيف عمّالاً جدداً للمساعدة ضغط كثيرا عليه لإنهاء البضاعة المعدّة للتصدير فلم يجد من بدّ سوى النزول بنفسه إلى العمل.

هكذا كان أبوه ضحية.. وأيّ ضحية، ضحية الاستغلال أم ضحية الحكم الغاشم أم النظام البائس أم ضحية القدر؟

حمل جثّة أبيه على كتفيه من المستشفى إلى البيت، رفض أيّ مساعدة ما لم يتحرّك الجميع للثورة أو حرق المصنع أو قتل صاحبه.

رفض كلّ النّاس مطلبه إن خوفاً أو جبناً، لم يستجب لدعواته سوى صديقيه «فوّاز» و «عبد الودود» مجاملة له فقط، وربّما نادل المقهى «حمّة» أبدى استعداداً للثورة غير أنّ رأيه يبقى متذبذباً، ولكن ماذا يفعل إزاء الخوف المستشري في قلوب أبناء حيّه وزملاء أبيه الواقعين تحت جبروت لا نهاية

له، كيف يُمكنه أن يوقظ عقولهم الّتي دبّ فيها السوس بعد، ولم تعد صالحة للاشتغال؟ كيف يحفّزهم على الثأر والعيش بكرامة وإن على كسرة يابسة؟ وأنّى له أن يجعل منهم سواعد تغيير تهبّ كرياح عاصفة تسحق الطفيليات الجاثمة فوق قلوبهم ورؤوسهم؟ أبوه قد مات والطّامة الكبرى قد حصلت، لا طعم له بعد الآن في تذوّق حلاوة الحياة، كان سيهدي فرحة نجاحه في البكالوريا إلى أبيه حتّى يُزهر قلبه الذّابل منذ دهر، سيحلّق به في حقول زاهرة.. سيعده بالمثابرة من أجله حتّى ينتشله من الفقر والحرمان.. سيصل إلى أعلى الدرجات والمناصب مادام القانون يسمح للفقراء بذلك، ربّما هذا ما أفلح فيه «بورقيبة» وأنصف فيه الفقراء، فبإمكانهم الخروج من الفقر والتساوي مع البورجوازيين والأرستقراطيين بالعلم، وهذا هو عين العدل.

دفن الجثّة بعيداً عن الأضرحة المترامية هنا وهناك في المقبرة.. في ركن وحيد ترك أباه كأنّ جثّته ترفض الانصهار مع الجثث الأخرى الخانعة، وبعد أن دوّن اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته كتب تعّهده بالثأر ثمّ فارق المقبرة وصوّب شرارة الثأر نحو المصنع، جعل يطوف الثنايا كأنّه يطير على بساط البطولة، استحضر كلّ الأبطال العرب والوطنيين من عنترة بن شدّاد إلى الدغباجي وغيرهما.

في مكتب صاحب المصنع انهال عليه بالهراوة: ضربات متتالية كادت أن تنهي حياته لولا تدخّل الحرّاس والعمّال.

استقبله صاحب المصنع ببشاشة ملوّنة بالسواد والصفرة الفاقعة، عرض عليه عملاً يليق بمستواه الدراسي على إثر نجاحه في مناظرة البكالوريا وتكفيراً عمّا أصاب أباه الّذي اعتبره حادث عمل عادي يصيب العمّال في كلّ أنحاء العالم. رأى في هذا العرض إهانة أخرى، وهو أن يشتري دم أبيه بمرتّب رفيع، هذا المتجبّر يتاجر بأرواح البسطاء، لم يكفِهِ عرق العمّال وسلبه لحقوقهم وامتصاص لمجهوداتهم وإفناء لأجسادهم المتهالكة، ها هو يشتري بأمواله النجسة كرامة الفقراء ويبتزّهم بعرض الدنيا الزائل.

لم يحتمل كلّ هذه الإهانات، وأخرى تذكّرها لمّا رأى ذلك الوجه. فانهال عليه بهراوته خلّف على إثرها العديد من الجروح في جسده بل كاد يقتله لولا حرّاس الشؤم أولئك الّذين رضوا بالذلّ ودراهم معدودات في سبيل حمايته.

اقتادوه إلى قسم الشرطة، لم يُنكر ما نُسب إليه، غير أنّ صاحب المصنع كان أكثر دهاء، قال إنّها ردّة فعل عادية من طفل بريء. ومن العيب أن يُدمّر مستقبله الدراسي، فهو من الناجحين المتفوّقين، وهكذا امتصّ غضب أهل الحيّ الّذين أخذت تدبّ في نفوسهم رياح التمرّد وعاصفة الثورة عن هذا الّذي ما انفكّ يدمّر رجال الحيّ الواحد تلو الآخر ويسرق أرواحهم بأموال قذرة.

ومع ذلك لم تتسامح الشرطة، ستة أشهر سجناً للعنف

المسلّط وغرامة مالية، وإن كان السجن حتمياً لا مفرّ منه فإنّ الغرامة تكفّل بها صديقاه «فوّاز» و«عبد الودود»، ولم يكتفيا عند هذا الحدّ بل أعالا عائلته الفقيرة لثلاثة أشهر، وأتمّا إنجاز الوثائق المطلوبة ليتحوّل راتب والده المتوفّى إلى أمّه وذلك أمر آخر يُحسب لجهاز الدولة، حتّى وإن مات الكافل الأوّل للعائلة فإنّ بعضا من مرتّبه يعود إلى العائلة.

هي المفاجأة الكبرى. وأيّ مفاجأة! أمحزنة أم مفرحة؟

لمّا خرج من السجن بعد أربعة أشهر لحسن سلوكه اصطدم بعائق كبير لم يأخذه بعين الاعتبار، بطاقة عـ٣ـدد هي سيرة ذاتية لكلّ طالب شغل جديد وجب أن تكون نقية نقاء صاحبها من السوابق العدلية، لم يدرك هذا الأمر، هذه الأشهر الستّة لا تسقط إلاّ بعد خمس سنوات شرط ألاّ يرتكب صاحبها أيّ جنحة أو جريمة، أيّ عمل يليق به بعد حصوله على شهادة البكالوريا؟ أيعود إلى أولئك الرأسماليين المبتزّين حتّى يتمكّن من إعالة نفسه وعائلته؟

أصيب بعمى البصر و البصيرة كاد يُقبل على تهوّر جديد بعد أن ضاقت نفسه وتاهت في منعطفات الغضب، غاب عنه العقل والإدراك يوم حصل على الشهادة الّتي طالما كان يحلم بها شيّع جنازة والده إلى المقبرة، لم يحقّق لوالده مبتغاه ولا تمكّن من انتشاله من براثن الاستغلال.

فإذا كُتب عليك الفقر فيجب أن تموت فقيراً، حتّى الآن لم يعد من حقّه الحلم الّذي لم يعد في متناول الجميع، الحلم

أيضا مُنع على الفقراء مثله، القهر يُحيط به من كلّ جانب ويُصيبه من حيث لا يتوقّع.

كفر بكلّ ميتافيزيقا الوجود بل ما آمن بها يوماً. وها هو اليوم يشتدّ كفرا.. تساءل: أيّ مصير هذا الّذي ينتظرني؟ وأيّ بؤس أنا أنتظر؟ شهر أكتوبر على مشارف الانقضاء. «فوّاز» و«عبد الودود» في العاصمة، في كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لدراسة التاريخ وهو هنا، كان متفوّقا: نتائجه أفضل من نتائجهم بل شتّان بين الثرى والثريا، ولكن هذا القدر المحتوم يجعلهما طلّابا في أضخم الجامعات التونسية وهو بلا وجود ولا كيان، تاهت عنه كلّ السبل.

لم يطق صبرا لولا تلك الرسالة الّتي وصلته من«عبد الودود» عن طريق النادل «حمّة» بأن يكون لقاؤهما الليلة في المقهى بعد صلاة المغرب صحبة صديقهما الثالث «فوّاز»، فقد عادا ليقضّيا إجازة نهاية الأسبوع في منزليهما.

في الموعد المحدّد سأل «مهديّ» بعد أن نفث دخان سيجارته:

- أما زلت ميتافيزيقياً، تحدّد مواعيدك بمواقيت الصلاة، ألم تعلّمك الجامعة معنى الوجود؟

تدخّل «حمّة» بثرثرته المعهودة:

- وبنات الجامعة: قيل عنهم: حسن وجمال، كم لديك من صديقة؟

نهره «مهديّ» بغلظة وسأل:

- كيف حال الجامعة إزاء البؤس الحاصل في البلاد؟

أجاب «فوّاز»: الله يستر، الإسلاميون يسيطرون، يُحكى عن انقلاب وشيك.

التفت «مهديّ» إلى النادل وطلب قهوة سريعة، وما إن غادر «حمّة» حتّى تساءل بجدّية:

- هل الأمر كما تقول؟

قال «عبد الودود»: ما جئنا لهذا، بل الأمر أهمّ من ذلك، هذه بطاقة طالب لك، لقد اجتهدنا وسجلنا لك في شعبة التاريخ معنا، وقد قدّمنا وثائق حصولك على منحة وأجاب ديوان الخدمات الجامعية بالموافقة، فأنت الآن طالب زميل لنا في كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ثمّ أعلمك أنّنا حاولنا أنا و«فوّاز» أن نسجّلك في شعبة القانون كما كنت ترغب ولكن لم نتفطّن إلى دورة التوجيه الأولى وأنت كما تعلم وجّهنا في الدورة الثانية، ثمّ أعلمك أنّك زميلنا في المبيت الجامعي في نفس الغرفة.

قفز وهو لا يعي ما يقول: ما تقولانه هُراء لا يُصدّق، أنتما كاذبان، الآن موسم الخريف القاحل ولا معنى لكذبكما وحتّى شهر «أفريل» المعروف بشياع الكذب فيه لم نبلغه بعد.. أشهر تفصلنا عنه.

ثمّ أخْبِراني: كيف تمكّنتما من إحضار الوثائق الضرورية الّتي لا يُمكن لها أن تستخرج إلاّ بإذن خاصّ منّي.

تكلّم «عبد الودود» برصانته المعهودة: مدير السجن وعائلتك ساعدانا، وهذا يكفي.. ثمّ أخرج ظرفاً فيه بعض الأموال وسلّمه إليه قائلاً: لا تسلْ من أين. غداً مساء تحزم

حقائبك وتولّي وجهتك قبلة الجامعة، بإمكانك بعد خمس سنوات أن تكون إطارا في الدولة، ونحن أيقن النّاس بقدراتك ونعوّل عليك كثيرا في المراجعة، هلمّ إلينا يا زميل ولا تعجبْ، وليكنْ النجاح والتفوّق حليفنا.

صمت قليلاً كأنّه ضيّع مفردات اللغة ثمّ بعد برهة قليلة قال كالمخاطب نفسه: بل كلّ العجب، الدنيا الدنيّة تركلك بعيداً ولمّا تشارف على الاندثار تهبك الرّوح والقوّة فتعود إليها لتركلها أنت بقدميك، أيّ دنيا عجيبة هذه!! أأنا في علم أم في حلم؟ أأصدّق أم أكذّب؟

في تلك الليلة لم يصوّب النوم نحو جفنيه، أخذ المذياع وبعض سجائر «الكريستال» وقهوة سوداء قاتمة حزينة كأيّامه، ثمّ افترش فراشاً بسيطاً مصنوعاً من الصوف في سطح الدّار وطفق يتأمّل القمر المستدير المتآكل من بعض جوانبه، لم يكن مشرقاً إشراقه الحقيقي بل يكسو الكون بإنارة خفيفة يجعل المكان يكاد يكون معتّماً تنعدم فيه الرؤية إلاّ من قريب.

استلقى على ظهره، أشعل سيجارته الأولى وأخذ نفساً عميقاً منصتاً إلى المذياع، ثمّ جعل يفكّر في مصيره.. ذات مرّة قال أبوه إنّ الدنيا «مكتوب». وأيّ مكتوب هذا الّذي سطّر مصيره، تعجّب كلّ العجب.. فهذه الدنيا وهبته ومنعته في آن واحد.. كم رغب في أن يكون طالباً جامعياً وها هو الآن طالب حقيقة.. و لكن طالب تاريخ لا حقوق كما كان يروم ويبغي،

وكم كَرِه أن يكون موظّفاً بسيطاً وها هو «المكتوب» يمنعه منها، ولكن من العائل لعائلته؟ أجر أبيه كان قليلاً ضعيفاً وأمّه الآن تحصل على بعضه.

المكتوب أيضا جعله الابن البكر الّذي عليه أن يكون مثالاً حسناً لإخوته ويساعدهم كي يشقّوا طريق الدراسة، على الأقل هذا حلم أبيه الوحيد، حدّثه يوماً بهذا فتحوّل الحديث من مجرّد تسليه إلى نوع من الوصية.

تذكّر والده فدمعت عيناه ثمّ تحوّل إلى بكاء فشهيق، ألقى نظرة على المذياع الّذي بجواره، كان ملازما لوالده، لا لغاية التسلية أو تضييع الوقت.. كان أداة لمعرفة مواقيت الصلاة ولاستماع الآذان فجراً، هكذا تكون الحصص بالترتيب التالي: شعر «المرزوقي» في «بورقيبة» ثمّ بعض المدائح وعلى إثرها آذان الفجر، كان يستفيق كلّ صباح على هذه الأنغام حتّى حسبها وهو في صغره كلام الله.

ولكن هذا الصباح لا شعرَ ولا مدائح، آذان الفجر قرب، تبثّ أغان وطنية، اليوم السابع من «نوفمبر».. فجر خريفيّ بنسمات باردة، ذكرى الجلاء العسكري مرّت فلا وجود لأيّ مناسبة وطنية فما سرّ هذا الاحتفال؟! ولمَ هذه الأغاني الوطنية المتكرّرة؟!

ثمّ أذاعت مقدّمة برامج كلمة: بعد قليل نقدّم خطاب رئيس «الجمهورية التونسية» «زين العابدين بن علي».

- ٤ -

أيّ فجر أُعلن فيه التغيير؟! وبأيّ معنى يعلن الوزير الأوّل تولّيه الرئاسة؟ فجر بداية الحياة، إعلان عن فتح جديد، نعمَ الاختيار! ولكن أمن المتناقضات أن يكون فجر التغيير في الخريف، شهر «نوفمبر» نهاية الخريف وبداية الشتاء بصقيعه وأمطاره الهدّامة، تُرى أكان لهذا التوقيت معنى ومغزى أم هي مجرّد صدف؟

أعلن الرئيس خطابه الشهير: لا رئاسة مدى الحياة... لا ظلم بعد اليوم... وغيرها من المعاني المثالية. «الاقتضاء» في اللغة يقول إنّ العهد الماضي هو عهد الظلم والرئاسة مدى الحياة. و«المضمر» في اللّغة أيضاً يقول إنّ الظلم متواصل وأنّ الرئاسة ستكون مدى الحياة أو لعلّها ستتوارث عبر الأزمنة، هذا الرئيس تزعّم البلاد بخطاب متماسك فهل يخرج منها بخطاب مثيل له؟

بالرغم ممّا في الخطاب من اطمئنان فإنّ نفس «المهدي» لم تكن مطمئنّة اطمئناناً ليس بعده شكّ، ربّما ما اعتاد الثقة في السياسيين أو لعلّ حدسه هو الّذي أخبره بذلك، المهم أنّه لم يكن مطمئنّا على الرغم من معاناته وعائلته من ظلم النظام القديم.. نظام التهميش للمناطق الداخلية والظلم

والمحسوبية، والده مات ضحية ولم تحصل عائلته إلاّ على أجر زهيد لا يعيل فرداً واحداً، عشرون سنة قضّاها في ذلك المصنع ولكن يُتنكّر له فيما بعد، دم أبيه ضاع هدراً وما في اليد من حيلة سوى البكاء على أطلال الوجع بل إنّ الوجع لم تعد له أطلال إذ يغزوك من حيث لا تحتسب. هكذا خمّن.

انتظر حتّى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود فيخرج يطلب سرّ هذا الانتقال أو الانقلاب الأبيض، نعمْ هو شبيه بذلك فلا دماء ولا ثورة ولا عصيان ولا تمرّد.. الانتقال كان سلسا لا دماء فيه ولا صدّا، ألقى نظرة من أعلى السطح يتبيّن أنهج القرية وأزقّتها، عناصر البوليس تُحاصر كلّ الأمكنة، الأمر مدبّر إذن.. وشغل المخابرات قد أتى أُكله، كلّ الأمور على أحسن ما يُرام وحتّى ذباب الخريف يرقص فرحاً لهذا التغيير المبارك.

على الرغم من مآسيه الّتي لا تُحصى ولا تعدّ زمن «بورقيبة» فإنّه الآن يُشفق عليه، لا بمعنى الشفقة على المسكين واليتيم بل على ما أرساه من علم.. فذلك الرجل هو مثقف ويدرك معنى الثقافة وقيمة المثقفّين، أمّا هذا الرجل الجديد فعسكريّ ينحدر من بواطن الانضباط.. فكان عليه أن يعلن في خطابه: لا تهاون بعد اليوم... ولا تكاسل، فحيرته تكمن في السؤال التالي: أيّ مصير ستلقى إنجازات «بورقيبة» الثقافية والتربوية والرعاية الصحية إزاء نظام عسكري متغلغل في أكوام الحقد والمناورة والقتل والتشريد؟

شتّان بين هذا وذاك. بين مثقّف دارس للحقوق وعسكري

لا يصلح إلاّ لقيادة الجيش، الشيئان لا يستويان، بين مناضل بنى الدولة على أسس سليمة وآخر ينقلب على وليّ نعمته غدراً بعد أن وثق فيه؟ الأمر يحتاج الكثير من التفكير.

ليس الأمر بهذه السذاجة. فمن الّذي أعاد الوزير الأوّل من بلاد الغربة؟ وكيف يرتقي بسرعة قصوى من رجل نكرة إلى مدير أمن ثمّ وزير للداخلية فوزير أوّل، أشهر قليلة فقط حدّدت مصير الدولة، هي الفاجعة إن كنّا بلا إرادة ولا موقف ولا قدرة على تحديد مصيرنا بأنفسنا!

سبات ورضا وقناعة بأنّ التغيير مبارك، هلّل الجميع لهذا الانقلاب الشبيه بلعبة البلياردو.. من ينهزم ينسحب تاركا المجال لزميلة لمواصلة المواجهة، هلّل الجميع: الدستوريون والإسلاميون واليساريون أيضا باركوا وجلسوا على طاولة الوفاق أو لعلّه النفاق.

مجرّد خطاب... كلام تناثر ذات فجر فسحر الجميع كأنّه الوحي، وإن لاقى الكلام المنزّل معارضة شديدة فإنّ ذلك الخطاب نزل بردا وسلاما.. أيّ معجزة هذه؟!

سؤال حيّر أمعاءه الخاوية من القوت الفاسد ودغدغ دماغه المسكون بهاجس الريبة والشكّ!

تقابل وصديقيه بعد طلوع الشمس في المقهى.. دار بينهم نقاش حذر.

- قال «المهدي» بشجاعته المعهودة: الأمر يزداد سوءا. كان النظام يكيل بمكيالين أمّا الآن فقد ضُيّعت كلّ «المكاييل»، فلا تعرف الغثّ من السمين، قد يسيطر على الدولة شرذمة

من المنتهزين المستغلّين لسذاجة العسكري أو لعلّه لاحتياطه المفرط ...

- ردّ «فوّاز» بحدّة كالمدافع بصرامة: بل هو تغيير مُبارك، وكلّ الدستوريين قد هلّلوا.

- بحيرة خاطب «عبد الودود»: الأمر غامض، خطاب مثاليّ وتطبيق يعلم الله كيف يكون.

- ردّ «المهدي» بسخرية: دائماً قضاء الله، أليس غباء ما تقول.. إنّما هو تسطير بشر.

ما إن أنهى «المهدي» كلامه حتّى وضع «حمّة» النادل الصينية على الطاولة، وبحركة خفيفة قدّم لكل منهم قهوته العبقة بعطر الزهر. ثمّ وشوش إليهم:

- البوليس منتشر في كلّ مكان، أمامكم وخلفكم، خذوا حذركم.

بسرعة غيّر «فوّاز» موضوع الحكاية متسائلا:

- متى يكون السفر إلى العاصمة: غداً صباحاً أم مساء.

ردّ «عبد الودود»:

- صباحاً كي نتمكّن من الاستعداد وترتيب الغرفة.

قال «المهدي»:

- أنا غير مستعدّ الآن للسفر، ارحلا أنتما وسألتحق بكما حالما يحين ذلك.

بعد يوم سافر «فوّاز» و «عبد الودود» إلى العاصمة ليلتحقا بالكليّة، لكن «المهدي» لم يجد القدرة على إخبار

والدته بالسفر، وكيف يهجر عائلته بعد أن توفّي والده فأصبح العائل الوحيد لها؟ كيف يقنع أمّه أنّه لا مفرّله سوى الالتحاق بالجامعة؟ وهل ستتمكّن بمفردها من الإحاطة بأربعة من الأطفال في سنّ المراهقة وجدّة عجوز تحتاج إلى عناية فائقة؟ وهل ذلك المبلغ الزهيد يكفيهم؟

ولكن ما فضل بقائه؟ هو لم يتقن من الأعمال اليدوية والحِرف شيئا، ولا تعلّم التجارة كي يُساعد عائلته، ولا يُمكنه أن يكون موظّفا في الدولة ولا عاملاً في الشركات الرأسمالية المستنزفة لجهود العمّال.. هل يتخلّى اليوم عن مبادئه ويكون مستكتباً في أحد المصانع من أجل عائلته؟ يبدو الأمر شائكاً، لم يجد من حلّ بين التخلّي عن مبادئه والتضحية من أجل عائلته؟ إنّه القهر بعينه ينتابه من جديد، لعلّ تلك الخدمات الّتي قدّمها صديقاه لم تعد نافعة إزاء إحساسه بالأنانية تجاه عائلته، عليه أن يتخلّى عن طموحه الشخصي ويعتني بإخوته فيثأر أحدهم أو جميعهم لأبيهم إن حصلوا على أعلى المناصب، ومن جهة أخرى تذكّر الظلم الّذي تعرض له أبوه.. إخوته صغار السنّ وما أحسّ أحدهم يوماً بمأساة أبيه، هو فقط العالم بخفايا المظالم الّتي تلقّاها وهو الوحيد القادر على القصاص.

وقع في مأزق الاختيار، فرضيتان أحلاهما بطعم الفاجعة الكامنة في أعماق كينونته، إمّا النضال في سبيل أبيه ووطنه حتّى يتمكّن من القضاء على التوحّش المستشري في أرحام

وطنه أو النضال في سبيل إخوته من أجل القطع مع براثن الفقر المدقع المنتشر في جذور عائلته، ماذا سيختار؟ سؤال أصعب من ذلك السؤال الفلسفي: أأنا خالق الله أم الله خالقي؟ وأنا المناضل في سبيل عائلتي أم عائلتي هي المناضلة في سبيلي؟ تساءل بحرقه الباحث عن خطّ مستقيم في أعماق البحر أو عن الجهات الستّ في عمق الصحراء الكبرى؟ أيّ تيه هذا الّذي يحلّ به؟ وأيّ مأساة تنتابه وهو في مقتبل التجارب؟

بعد العشاء انفرد بوالدته، أخذ كأس الشاي بين يديه تأمّل فيه ملياً، تساءل بحرقة الفيلسوف: القيمة هنا في الكأس المحدّد لما فيه أم للشاي؟ ما نشربه هو الشاي وهو الكائن الفعلي ولكن لا يمكن له أن يتحدّد إلاّ بالكائن الّذي يحمله، فالكأس يبقى دائماً على حاله لا يتغيّر أمّا مكوّنه غير ثابت: شاي أو لبن أو قهوة أو خمر.. أو غيرها من المكوّنات، كذلك الإنسان أهو محدّد لنفسه باعتباره كائناً إنساناً أم بما لديه من شهادات وعقّارات وأموال وغيرها، فالشخص هو ثابت لا يتغيّر كائن إنسان لكن قيمته تتحدّد بما يملكه أو بما يحمله من أفكار.

لم تفهم والدته ما يقول.. انتفضت انتفاضة المصاب بوخز إبرة وقالت:

- أهو الجنون قد أصابك يا بُني أم القهر على والدك؟ ما هذا الهذيان؟ لعلّها عين أصابتك.

ضحك من فرط الوجع أو لعلّ من فرط الوهم وقال:

- كلاهما يا أمّي.. أنا مصاب بمسّ، المفرح أنّنا على أبواب شتاء وإلاّ لرأيتني أجوب الشوارع والأزقّة بحثا عن الحقيقة، أنت تعلمين وقع حرارة الشمس كوقع الظلم تماماً. كلاهما مذهب للعقل.. المأساة ليس أنّنا لا نستطيع أن نحتسي القهر بل المأساة أنّنا غير قادرين على لفظ الوجع الّذي بداخلنا، وإذا لفظنا الوجع انتهت مأساتنا، وكيف يكون هذا الفعل وكيف يتمّ ويتحقّق؟ أبي مات ظلماً وكيف القصاص إن كنت مغلولا بلا جناحين.

- أيّ قصد يا بنيّ تقصد؟

- يجب أن أمتلك السلاح الّذي به أقدر على مواجهة أعدائي.

قاطعته: عن أيّ انتقام تتحدّث أو قصاص، استمع إليّ وأنصت وكفاك فلسفة، هذه وصيّة أبيك قبل وفاته كأنّه أحسّ بموته.

اعتدل في جلسته وثنّى ركبتيه وأخذ كأس الشّاي يرتشف منه بين الفينة و الأخرى وهو ينصت إلى والدته بانتباه.

قالت: لا تقاطعني إلى أن أنهي كلامي لأنّ الأمر في غاية الأهميّة.

- لك ذلك.

أخرجت مبلغاً مالياً كانت تضعه في صدرها.

قفز بلا وعي أو إرادة: ما كلّ هذا؟!

- ألم تعدني بالصمت؟

اعتدل في جلسته وطفق ينصت بانتباه.

كان أبوك يدّخر هذا المبلغ لإكمال دراستك في العاصمة لم يشأ أن يخبرك كان سيقدّمه لك مكافأة لنجاحك في الامتحان.

قاطعها: أصدقيني القول يا أمّي، أليست هذه الأموال اشترى بها صاحب مصنع الرخام دم أبي المهدور؟ سمعت بعض الهمز واللمز عن هذا، فكلّما أصيب عامل إلاّ واشترى عائلته بدراهم معدودات، هل زاركم وأنا في السجن؟

خاطبته بتشنّج: إن لم تصمت فسألطمك وأعلن فيك غضبي إلى يوم يبعثون، أنت تلطّخ أباك وهو في «دار الحقّ» وأنت أيّها..... وصمتت تزيل الدمع من عينيها وأجهشت بالبكاء.

احتضنها معتذرا كأنّه يكفّر عن ذنب اقترفه أو يزيل وجعاً ألمّ به... قبّل رأسها وأجلسها بهدوء معتذرا.

واصلت حديثها بتقطّع: هذا المال لك هي وصيّة والدك.

- ولكن يا أمّي إخوتي.. هم ورثة أبي أيضاً وهم أحقّ بهذه الأموال.

خاطبته بحدّة: ألم تصمت كي أواصل؟ سألفظ أنفاسي إن لم تكفّ عن ثرثرتك، إخوتك هم عهدتي أنا.

انتفض من مكانه... ولكنّه عدل عن الكلام استجابة لطلب أمّه قائلا: واصلي حديثك.

أنت تعلم أنّي وريثة أرض يستغلّها أخوالك، لقد زارني خالك الأكبر ووهبني حقّي في الميراث، وهي قطعة أرض صالحة للزارعة وبها بعض أشجار الزيتون واللّوز تساعدني على إعالة إخوتك من حيث الغذاء أمّا مرتّب أبيك فسأخصّصه للنفقة عليك وإخوتك لمواصلة تعليمكم، نفّذ وصيّة والدك وارحل

إلى العاصمة فقد رتّبت مع صديقيك «عبد الودود» و«فوّاز» كلّ الإجراءات، لم يتبقّ إلاّ أن ترتّب أنت نفسك. ولتعلم أيضا أنّ مؤونتك جاهزة تكفيك لأشهر من كلّ المواد الغذائية.

أحسّ بانتشاء ليس له مثيل، ولكنه انتشاء مخضّب بحيرة، هذه أنانية كبرى إن ترك عائلته وسافر إلى العاصمة، أمّه تحتاج إلى مساعد ومعين يساعدها على «همّ الزمان» كما تردّد، وهذه الأموال قد تكفيك لسنة أو لسنتين بفضل المنحة الجامعية. وبعد ماذا سيفعل وكيف يتصرّف؟

رجع إلى أمّه، خاطبها بهدوء: ليس الأمر عادلاً، كيف أسافر وأترك العائلة بلا عائل!

أجابته بعد أن قبّلته واحتضنته بين ذراعيها: الله، يا بني، كفيل بنا، وإن كنت تريد إرضائي وإرضاء والدك فتفوّق في الدراسة كما كنت دائما وستفتح إن شاء الله الأبواب في وجهك لعلّ البلاد مع هذا التغيير تكون على أفضل حال.. ثق في الله وفي أمّك والتحق بالجامعة قبل فوات الأوان.

وهو يحزم حقائبه حزم كلّ شجاعته وقدراته وعزم على المثابرة. الأبواب انفتحت له من حيث لا يعلم، كان سيدفن طموحه بين جدران السجن أو إحدى الوظائف الصغرى ولكن ها هو يطلق جناحيه ويحلّق نحو الجامعة، ما كان يحلم بكلّ هذا الكرم.. تساءل بحيرة الشاكّ: أهو القدر فعلا؟!

- ٥ -

الساعة تُشير إلى منتصف القهر، قطع «مهديّ» الحديث بتأوّهات عميقة، فعلتْ الخمر في نفسه فعل الوجع الّذي حلّ به.. خاطب صديقه الجزائري: تُرى أ تكون البلاد على أحسن ما يُرام؟ لقد انتشرت الجريمة والنهب والسرقة، أهذه ثورة أم فوضى؟ تأمّلْ! تبثّ مظاهر الفوضى في جميع القنوات التونسية، وإلى الآن الوطن بلا رئيس، ولا حاكم فعلي يُسيّر البلاد.

ردّ الجزائري: ما كلّ هذا الوجع؟ كان عليك أن تتوجّع أكثر، كلّ هذا الّذي مرّ وأنت صامد صمود الجبال الشامخة.. أنت مثال يُحتذى به، قصّتك أشبه بقصّة مأساويّة من القصص التراجيدية في المسرحيات الإغريقية.

تُرى! كيف حال «فاطمة» بعد أنْ أذنبتُ في حقّها؟ تبدو في غاية الصمود والقوّة والعنجهيّة، تكلّمت لساعات طوال فأقنعت، هي نموذج الثورة والمبادئ الحقيقية.

الأوجاع تحاصرني من كلّ صوب - قال ذلك لرفيقه - غداً نواصل الحكاية. إلى اللّقاء.

وما إن همّ بالوقوف حتّى سقط مغشيّاً عليه، لم يفق إلاّ مع طلوع الفجر، هو في المستشفى وزوجته الإيطالية بجواره

تخفّف عنه وطأة الصدمة.

- تساءل.. ما الّذي حلّ بي؟ ولمَ أنا هنا؟

- أجابت بصوت خافت وهي تضع يدها اليسرى على جبينه وهو ممدّد في الفراش: اتّصل بي مدير الشركة بعد منتصف الليل وأخبرني أنّ أحد أصدقائك العرب قد اتّصل به وأخبره أنّك في حال سيّئة، وأنّك في مستشفى روما المركزي، في غيبوبة من فرط السكر أو.....

- أين هو الآن؟

- لا أعلم.

- خذيني إلى النزل التابع للشركة لأستريح وحيداً.. أنا في غاية الوجع والقهر.

- لِمَ لا تعود إلى منزلك؟ بنتاك تسألان عنك، اعتادتا حكاياتك الجميلة كلّ مساء، افتقدتا ذلك البارحة وألحّتا عليّ في السؤال عنك.

- أنا لا أطيق أحداً، أريد أن أبقى وحيداً بعيداً كلّ البعد عن مأساتي.. اعتني ببنتيك والشركة.. أنا لا قدرة لي على العمل ولا رغبة لي في ذلك.. وإن لم أعد إليكم يوماً فاعتني بهما.. تلك وصيّتي.

تساءلت بقهر: أتهجرنا ونحن في أمسّ الحاجة إليك! إن كان بك وجع فنحملُه جميعاً، أنا سامحتك على ما سبّبته لي من أذى.. الأهم أن تعود إلينا.

- أنا في مفترق الطرق.. لا رغبة لي في أحد.. أنا على مشارف الانتحار.. أرجوكِ غادري الآن وإلاّ تسببتِ في كارثة.

لم تيأس «مريا» بل حاولت مراراً وتكراراً حتّى تُثنيه عن عزمه وتعيده إلى السبل السويّة، ولكنّه كان كارهاً لكلّ شيء.. لنفسه، لزوجته، للحياة، للمال والبنين...

لم يعرف يوما مرارة بمثل هذا الطعم ولا احتقر نفسه مثلما يحتقرها الآن، كلّ ما ناضل من أجله يُلقي به خلفه.. ويرفل في مستنقع نزوة أدّت به إلى محاولة الانتحار شنقاً.. لحظة متعة غيّرت حياته وقلبتها رأسا على عقب.. لم يتصوّر يوماً جبروت ذلك النظام ولا قَدّر مدى قدرته على الفتك بمعارضيه.. وهو المثقّف ظنّ المنازلة شريفة تكون في ساحة الوغى.

عاد بذاكرته إلى صديقه «عبد الودود» ذلك الّذي حُكم عليه لربع قرن سجناً على أنّهما مختلفان في الفكر إلاّ أنّ صداقتهما ظلّت ثابتة.. كان «عبد الودود» منتمياً إلى التيّار الإسلامي فكراً لا واقعاً.. هو من عائلة ميسورة، استطاع بمثابرته أن يكون أستاذاً للتاريخ، تزوّج على إثر تعيينه للتدريس في أحد المعاهد الثانوية في المدينة ببعض الأشهر ولكنّه اقتيد إلى السجن بعد أيّام قليلة من زفافه.. تُرى كيف كان مصيره بعد هذه الثورة؟ تذكّر أنّه لم يُرسل إلى زوجته المبلغ الّذي كان يُرسله إليها بداية كلّ شهر إعانة لها بعد أن شُرّدت هي أيضاً وطُردت من العمل بل حرمت منها نتيجة المضايقة الشديدة الّتي لاقتها.

زوجة «عبد الودود» «فضيلة» تبدو امرأة فاضلة، أستاذة تفكير إسلامي تعرّف عليها «عبد الودود» في كلية

الشريعة وعلوم الدّين عندما كان يقوم ببحث التخرّج حول «الإرهاصات السياسية والاجتماعية والثقافية والإثنية لظهور الدّين الإسلامي في الجزيرة العربية».. هذا البحث اضطرّه إلى زيارة كلية أصول الدّين للحصول على بعض المصادر والمراجع.. وهناك تعارفا.. عَرَفَ فيها الطُهر والنقاء ووجدتْ فيه معنى الرّجولة.. وعلى إثر تعيينهما تزوّجا، ولكن لم يهنئا بمتعة الزواج، فقد اقتيد «عبد الودود» إلى السجن وتعرّضت هي إلى التعذيب القاسي ثمّ فُصلت عن العمل.. التهمة «الانتماء» سؤال حيّره وهو يعرف «عبد الودود» أشدّ المعرفة، أكان فعلا قائداً ضمن حركة الاتّجاه الإسلامي؟ لم يلاحظ عليه ذلك.. ولكن الإسلاميين يعملون في كتمان شديد، قد يكون.

ومع هذه الحيرة تعاطف مع «عبد الودود» وأمثاله، أقام الكثير من المسيرات المناهضة للنظام والمعادية له والمدافعة عن المظلومين، ولكن ما من تغيير بقي الأمر على حاله.

تذكّر قصّة «عبد الودود» الشبيهة بقصّته، وإن اختلفا في المذهب فإنّهما يشتركان في المأساة ذاتها، صديقه دُفن في السجن وشُرّدت عائلته وعُذّبا والداه، وهو هُجّر من بلاده.. أيّ غربة هذه؟ ولكن تبدو غربة «عبد الودود» أشدّ لأنّه غريب وهو في موطنه، مات والداه قهراً عليه وفقّرت عائلته ولكنّه ما استطاع حضور تشييع جنازتهما.. أيّ قسوة أشدّ من ذلك؟!!

أخرج علبة السجائر وهاتفه الجوّال، أشعل السيجارة وأخذ نفساً عميقاً، نظر نحو السيجارة، خاطبها بجنون

الفيلسوف الّذي أصابه وجع الكون وقهر الزمان.. لعلّكِ سبَبْتِ لي الكثير من الأمراض الخبيثة لكنّي أحييك تحية الرجل العاشق لأنّك الوحيدة في الكون الّتي تحترق من أجلي.. فكلّما احترقتِ نفختُ في الكون بعض أوجاعي ونفثتها نحو العدم.. ألا يوجد في الكون من يحترق من أجلك!!

ضغط على أزرار الهاتف واتّصل بمدير شركته. ذكّره بضرورة إرسال الأموال إلى أخته وعائلته و «فضيلة» «شبه الأرملة». كأخته تماماً متزوّجة بالقوّة لا بالفعل، لعلّها بلغت سنّ اليأس ولم يتسنّ لها الإنجاب وزوجها في السجن.. وكيف ستنجب؟

هي امرأة عفيفة ومع ذلك الألسن تلاحقها من كلّ جانب، مُنعت من كلّ الأعمال حتّى معينة منزلية.. البوليس يلاحقها ويمنع عنها الارتزاق برزق حلال.. يدفعها غصباً إلى ارتكاب الرذيلة، حتّى «الحوالة البريدية» الأولى الّتي أرسلتها إليها مُنعت عنها وأُعيدت الأموال إليّ فلم أجد من حلّ سوى التحايل في إرسالها، ولو كنت هناك في بلدي ربّما لاتهمت بأنّي عشيقها.

أيّ مأساة هذه الّتي أصابت البلاد؟! إنها تزداد وجعا على وجع. فالاقتصاد العالمي يشكو مأزقاً كبيراً والاقتصاد التونسي أكثر تأزّماً.. فالعائلة الحاكمة قد استولت على كلّ الخيرات وانسدّت كلّ الأفق وارتفعت نسب البطالة، حتّى أنّ الدولة أضحت تُحمّل الشاب مسؤولية بطالته إمّا لضعف تكوينه وإمّا لترفعّه عن بعض الأعمال وإمّا لعدم تناسب شهادته مع

سوق الشغل وغيرها، وهذه العلل من المضحكات المبكيات، وكأنّ الشهادات الّتي تمنحها الدولة هي غير مسؤولة عنها بل أكثر من ذلك تقول الحكومة إنّ الدولة تتكفّل بالتعليم أمّا التشغيل فلا دخل لها فيه.

خاطب نفسه كالمخبول: الوضع كارثي، ولكن لا أحد توقّع سقوط هرم السلطة بهذا اليُسر وبهذه السرعة المباغتة للجميع.. لعلّ في الأمر سرّاً كما يقول الصديق الجزائري، وكلّما ازداد وضع البلاد تأزّماً ازدادت وضعيتي تعقّداً. في الأمس القريب كنت أحزم حقائبي لأرجع إلى التربة الّتي خلقت منها بعد أن قدّمت تضحية أخرى لا تقلّ كارثية عن الأولى، لكن تلك التضحية قد تذهب عقلي من جديد وتزفّ بي إلى الجنون الأبدي.

أكلّما أقدمت على فعل مّا يُعيدني إلى رشدي انتفض الكون واهتزّ اعتراضاً!!. أهو القدر كما يزعمون، «مكتوب» كما يقول والدي رحمه الله، وهو قدر لا دخل لي في تحديد ملامحه.

تنهّد ملء وجع وطنه، واستنشق عطر سيجارته بدل عطر وطنه، وتاه في مفترق الأوهام، كأنّه يبحث في اللّاوجود عن الوجود.. كان رجلا كألف فأضحى أوهن من بيت العنكبوت.

حلمه أن يبني وطناً لا ظلم فيه ولا قمع ولا تسلّط.. غير أنّ الحلم لم يكن في مقدوره. «حتّى الحلم لم يعد في متناول الجميع.. كان عليه ألاّ يحلم».

- ٦ -

سنتان مرّتا، يا رفيق مأساتي، على أحسن ما يُرام. حصلتُ خلالهما على شهادة الدراسات الجامعية بتفوّق، وصديقاي «عبد الودود» و«فوّاز» حصلا أيضا على الشهادة ولكن ليس بنفس درجة التفوّق، كنت منكبّاً على الدراسة لا أولّي وجهي إلاّ نحو الدفاتر والصحائف.. ملازما للمكتبة طوال اليوم، هذه الشهادة تخوّل لي أيضا العمل وقتئذ.. ولكن ملفّي الأمني لا يسمح، لا بدّ أن أقضيّ خمس سنوات بلا جنحة حتّى تُسحب تلك القضية من سجلّي الأمني.

سنتان من أجمل سنين عمري، حالفني الحظ في الدراسة كما تعلم، كما حالفني في التعرّف على ملكة «قرطاج» «فاطمة» أو كما كنت أناديها دائماً «فاتنة» لأنّها فاتنة قلبي.

لم يجمعنا الحبّ من أوّل نظرة بل التنافس في الحصول على أفضل المعدّلات والأخذ من الثقافة والمطالعة نصيباً أوفرهما اللّذان قرّبا بين قلبينا، على جمالها الفيّاض المنحدر من جمال الأندلسيين فإنّها لم تولِهِ أيّ أهميّة، هي أندلسية من مدينة «باجة» التابعة لمطمورة روما أو كما تُسمّى قديماً

« فاقا»، لم تنشغل بجمالها بل شغفت بالبحث عن أصولها المهاجرة من الأندلس وسبب الهجرة؟ ولِمَ كانت نحو «باجة» دون غيرها من المدن؟ ولمَ كانت تسمّى «باجة» « فاقا»؟ هذه الأسئلة وغيرها دفعت بها لأنْ تكون طالبة في قسم التاريخ.

شغفتْ بالعلم والثقافة فكانت محلّ اهتمام الكثير من الطلبة، ولو كانت تولي للجاه والكبر عناية لما كانت حبيبة لي.. حدّثتني ذات حنين أنّها لا تعشق في الرجل سوى رجولته وثقافته.. فَوجدت فيّ ما لم تجده في شبّان عصرها، كانت رقيقة وأنيقة بسواد شعرها الفحميّ وبياض بشرتها الناصع.

سنتان كالحلم مرّتا دون أنْ أحسّ بأنّ الزمن يتقدّم بنا رويداً رويداً نحو المجهول، نسيت القهر الّذي أصابني بل تناسيته وأجّلته إلى زمن غير معلوم، «فاطمة» بعثت فيّ إشراق الحياة وعلّمتني أنّ المآسي لا تزيحها إلاّ العزائم.

في تلك الفترة عاشت الجامعة الكثير من الهدوء والصفاء، منذ الانقلاب الأبيض على «بورقيبة» صانع الدولة الحديثة إلى سنة ١٩٨٩ كلّ الفرقاء السياسيين يباركون هذا التغيير المجيد، من الإسلاميين واليساريين والقوميين وغيرهم.

كانت صدمة الحبّ الأوّل في الفصل حين قدّمت ندوة عن التاريخ الإسلامي في «تونس». بالغتْ في تمجيد الخلفاء

الأندلسيين وفي المقابل حطّت من الفاطميين في القيروان. ثمّ أشارت إلى الدور الأساسي للأندلسيين دون غيرهم في ازدهار الدولة الإسلامية في بلاد المغرب.

يومها لم أهدأ، التاريخ مزيّف هذا متّفق عليه، أمّا أن يُزيّف في حضرتي فهذا الّذي لم يرق لي.. اشتدّ النقاش بيننا إلى ما بعد حصّة الدرس المسيّر، ثمّ تتالت حلقات النقاش فتجاوزت التاريخ الإسلامي إلى الموقف من الشيعة والسنّة ثمّ من الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية والقومية، وليس ما وحّد بيننا الميل إلى النظام الاجتماعي العادل الذي يتبنّاه الاشتراكيون فقط بل الإلمام بالمعطيات التاريخية إلماما شاملاً سواء في تاريخنا الإسلامي أو التاريخ العالمي.

تتالت اللّقاءات إلى أن تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى نوع من «العِشرة» فحبّ عميق بين روحين يشتركان في الهموم نفسها.

في شهر «جوان»، بعد أيّام قليلة من ذكرى وفاة والدي الثانية علّقت النتائج على حائط أصمّ، انفجرت عيناي بكاء وأنا ألمح اسمي يتصدّر قائمة الناجحين، حينها أحسست بيد تمرّ على كتفي وأخرى تتأبّطني من الخلف وتصّعّد نحو وجهي تجفّف دموعي، وما إن أحسست برقّة الأنامل حتّى أجهشت بالبكاء. فانهمرت دموعي كالشلاّلات.

كانت «فاطمة» تواسي مأساتي الّتي أبت الانتهاء والانقضاء. فكلّما مرّت حادثة سعيدة تنتشلها ذكرى الحزن العميق. أبي الّذي تقشَّف في قوت يومه وعاش على كسرة يابسة وادخّر من الأموال ما يكفيني لسنتين دراسة لم يشهد نجاحي، فأنّى لي أن أستمتع بهذا الفرح؟ على أنّه يجب أن يكون فرحاً عميقاً إذ ليس من اليسير أن يتصدّر طالب ينحدر من مستنقعات الفقر والتهميش المرتبة الأولى بمعدّل قارب الامتياز.

«فاطمة» الّتي أحبّتني بعمق مأساتي لا تنفكّ عن مواساتي، فكلّما كانت المأساة عميقة كان حبّ «فاطمة» لي أعمق..

مساء ذلك اليوم أحيت لي حفلاً بهيجاً لم يكن فيه من العشّاق المجانين إلاّ كلينا في مقهى مقام على ضفاف العشق، تأمّلتْ عينيّ المغرورقة بالعبرات والمنحدرة منها معان لا تُكشف لعابر السبيل.. شاهدتْ ملامح الحزن البادية عليّ والمسيطرة على ملامح القهر المارّبي بين الفينة والأخرى.

رفعت عينيها ونحن جالسان وجهاً لوجه في زاوية لا يطرق بابها إلاّ همسات العشق، صوّبت نيران الوجد نحوي فأعلت من وهج الغرام.. إلى حدّ تقطّعت معه الأنفاس فتعلو وتنحدر بتباطؤ تعلن من خلاله بداية حرب القلوب.

أحسست بأنامل قلبها تمرّر عشقها بتؤدة نحو شرايين قلبي

ففار بسرعة البرق فيّ وهج العشق، لم نكن نتهامس عشقاً بل كنّا « نتعاشق» همساً بلذّة صدق المشاعر، انهالت الكلمات عليها كما تنهال على شاعر عاشق لحظة مناجاته القمر، لم تفارق عيناها عينيّ ولا رفعت يداها من على يديّ.

« أجمل الحبّ أصدقه» قالت ورموش عينيها تترقرق في عبارات الوجد، كانت ليّنة لين التربة المنحدرة منها.. صادقة صدق حضارتها الضاربة في أعماق الهيام، ثمّ أردفت مرحلة أولى دراسة كنتَ المتفوّق فيها أمّا سنة أولى عشق فلي الامتياز. أنا أحببتك بقدر عشقي للتربة الّتي وُلدت منها، ما حسبت يوما أُصاب بمثل هذا الجنون وما خلت أنّي أتأنّق للعشق مثل تأنّقي اليوم له، فبقدر احتفالي بنجاحك أحتفل بك وبالعشق الّذي يقطع أنفاسي بين الفينة والأخرى.. اليوم أتعرّف على كائن جديد يحتفل معي احتفالي بجمال الكون ورقتّه، أتعلم! أنا أكثر الكائنات فرحاً ورقصاً: من القمر، من الطبيعة، من النجوم، ومن الأزهار المشرقة في براكين فؤادي.

حدّثتني برقّته لا متناهية وعفوية غير محدودة وصدق ليس له مثيل، لم أعهد امرأة بمثل هذا الجمال الروحي والجسدي، ولم أعرف امرأة بمثل هذا الصدق، كأنّها تنزل إلينا نزول رسول من كوكب آخر لم تستطع الأرض إنجابه بعد مرور ملايين السنين.

كان حبّنا كحبّ أولئك العذريين - طاهراً عفيفاً إلى حدّ النقاء، لم نكن نكترث لأجسادنا الموجوعة، تلك الأجساد جعلناها واجهة للتصدّي إلى قسوة الزمان وجمعنا أرواحنا جمعاً ليس بعده انفصال وتعاهدنا على أجمل حبّ.

أيّ «فاطمة» ! يا وجعي وفجعي.

أجمل ما فيها ابتسامة غامضة لا تفصح عمّا بمكنونها ولا توضح عمّا بداخلها إلاّ بهمسات عينيها عشقاً للوجود وصدقاً للمشاعر.

نفخت فيّ من روحها بعض الحياة فصِرت أستنشق عطر الوجود بجمال زقزقة العصافير واخضرار غابات النخيل في عينيها.

كنّا نلتقي في المغامرة نفسها، مغامرة إنسان يبحث عن مفهوم الإنسان بل تحديداً في مفهوم ذاته، أرهقنا هذا السؤال إلى حدّ لم يفارق أنفاس أحلامنا لحظة، بل يدغدغ رطوبة قلوبنا كلّما أحسسنا بوجع ضياع الوطن.

كنّا نمارس الصمت نفسه خوفاً من ذلك التاريخ الّذي يمارس سطوته علينا عنوة، قد يكون جبنا أو خوفا أو لا مبالاة، المهمّ أننّا لزمنا الصمت واحترقنا في نزيف الإهمال.

- ٧ -

كثُر النباح
فسكتنا

ونحن نمرّ من عتمة البهو،
عن الكلام المباح
فاحترقنا
احتراقتين اثنتين
في المساء
وفي الصباح
،،،

عاصفة تهتزّ
هوجاء

أمطار تقصف
رعداء

طوفان يدفعنا
ورياح

هذا الصباح
يا صباح
أضحى ملوّناً
بالبرد
بالرعد
وانقلاب
المناخ

- ٨ -

واحترقنا بعد سنتين من الوجع الفاخر، لم نكن نعلم العاصفة بعد هدوء دام سنتين، هدوءاً أنشأ العاصفة الهوجاء.
بدأت العاصفة في البلاد، واشتعلت في العائلة.

أختي «زينب» الّتي تصغرني بسنتين حصلت على البكالوريا والتحقت بالوظيفة «مدرّسة» للتعليم الابتدائي، ويا ليتها ما فعلت، لو بقيت في المنزل بلا شهادة ولا عمل لكان أفضل.. أن تحافظ على أمّيتك أفضل من أن تلقي بنفسك إلى الهلاك، هكذا تمتمت في آخر لقاء لي بها.

لم تكن تفقه في علم السياسة شيئاً، امرأة نشأت على سجيّتها محتشمة ترفض أن تتناثر خصلات شعرها على كتفيها حشمة وخجلاً دون انتماء إلى هذا التيار أو ذاك، صادقة مع نفسها تستر عورتها وفق شرع الله - هذا قولها، ولكن السيل الجارف حوّلها عنوة وهي لا تعلم في أيّ المحطات تقف.

تهافت عليها العرسان من كلّ صوب وحدب. لكنّها رفضت

ذلك، هي حاملة الرسالة بدلا عنّي وتعهّدت ألاّ تغادر المنزل إلاّ بعد أن تسلّمني المشعل، اجتهدت في أن أكون.. فكنت سنة ١٩٩١ صاحب شهادة الأستاذية في التاريخ.

كانت تغدق عليّ من الأموال ما يكفيني لأحزاني وأفراحي، لجفائي وحبّي، قدّمت تضحيات جساماً من أجل عائلتها.. رفضت الزواج على الرغم من تهافت العرسان عليها، بل أجّلته إلى حين تخرّجي من الجامعة.

وعلى الرغم من تضحياتها لم تنعم برغد العيش، زجّت إلى سجن الجنون والتيه بعد أن زجّت إلى زوجها بأشهر قليلة، شرّدوها فمنعوها من عملها ومن زوجها ومن عائلتها لكونها رفضت أن تنزع عنها ما يستر عورتها، هي هكذا تربّت، وهكذا آمنت، ورثت عن أبيها الوقار والهدوء. لكن يد الغدر قصفت جمالها وعفويتها وصدقها فأوقعتها وحيدة بلا زوج، معطّلة بلا عمل، وحيدة بلا سند، حزينة بلا فرح.

عليّ أنا الآن أن أردّ ذلك الجميل، لكن ما باليد حيلة، سنة أخرى من العطالة الإجبارية، اضطررت حينها أن اشتغل وأوقف مغامرة الدراسة وأجّلت مشروع «المرحلة الثالثة» إلى حين، أملاً في أن أصحّح تاريخ «تونس» وأدوّن ما تغافلت عنه الأقلام المأجورة أو أهملته قصداً أو سهواً.

البلاد تعيش هدوء حذِر.. يد النظام طالت كلّ المعارضين والاقتصاد على شفا الانهيار، أغلب المصانع والمعامل أغلقت أبوابها، لم أجد من حلّ سوى الرحيل نحو مدينة الأحلام «جربة» لأشتغل في قطاع السياحة. ذلك القطاع الّذي تدعمه بعض القوى الغربية لغايات.

*****

كيف لي أن أصف لك أوجاعي. أوجاع من يلمح أخته رمز الطهارة تغتصب علنا؟ أنّى له أن يصمت؟

ذات خريف على سطح المنزل في الثلث الأخير من الليل، كنت في سهر أقتل الوقت وأمتصّ عذاب البطالة وأستدعي عقلي بين الفينة والأخرى كي يلهمني بعضاً من التفكير حول أوضاعي المتردية، وكلّما اشتدّ التفكير امتدّ السهر، التهمت سجائري «الوضيعة» الّتي تحاكي وضاعتي دفعة واحدة كأنّي أستعدّ لساعة نزال ليس بعدها حياة، انتابتني قشعريرة صامتة ثمّ تدافعت بداخلي وتراقصت فانتفضت قائما.

تأمّلت نجوم السماء المنيرة. كانت مشعّة تخطّها بعض الخيوط البيضاء فأخذت تتلبّد كالسحب، إنّه بداية الخريف و السماء صافية فما بال السحب تتجمّع؟!

أهي أمطار الخريف المفاجأة ؟ قد يكون ذلك ولكن صدري

اهتزّ وقلبي انقبض.. كأنّه الحدس ينبئني بأمر مّا؟ نزلت إلى المنزل لأتفقّد أمّي وجدّتي وإخوتي، كانوا على أحسن ما يُرام نائمين في هدوء تامّ، ثمّ مررت على غرفة أختي «زينب» تلك الّتي عادت بعد أشهر قليلة من زواجها، محمّلة بحقائب الخيبة، إلى المنزل.. فقد اقتيد زوجها إلى السجن بتهمة الانتماء إلى تنظيم غير مرخص له.

كانت تحتضن الكتاب المقدّس ككلّ فجر مذ بلغت سنّ الرشد، تقرأ ما تيسّر لها، كنّا نختلف في وجهات النظر ولكن يجمعنا قلب واحد. كفّت عنيّ سخط الدنيا واعوجاجها منذ الصبا، وعلى إفراطي كانت متقشّفة، تهبني ما جمّعته من أموال قليلة، ثمّ قدّمت تضحيات جساماً لأجل أن أكون، متنازلة عن حقّها في الدراسة

قامت من مكانها بعد أن أعادت «الكتاب» إلى رفوف المكتبة ثمّ ارتمت في أحضاني كأنّها تشكو همّاً لازمها منذ ملايين السنين.

- ٩ -

آه يا أختاه.. كلّما تذكّرتك اشتدّ بي الوجع، وهبتنا كلّ ما تملكين، مرتّبك لسنوات تتقاسمه العائلة والآن لا تملك هذه العائلة كيف تعيدُ إليك سرورك، زوجك في غياهب السجن وأنت أصبحتِ معطّلة عن العمل عنوة، الآن عليّ أن أتحمّل المسؤوليّة وأكون عائل هذه العائلة، فكّرت كثيرا في «فوّاز» الّذي أصبح ذا منصب مرموق في وزارة الثقافة بعد حصوله على الأستاذية في التاريخ وكذلك صحفياً لامعا في جريدة «الحريّة» التّابعة للحزب الحاكم يكتب مقالاً أسبوعياً يُمجّد فيه النّظام ويحصل على مقابل ماديّ مهمّ، ولكن هل يُمكنني أن أتنازل عن سنوات النضال في الجامعة وانخرط في سلك «المهلّلين». لا يُمكنني فعلاً أن أقبل ذلك، ولكن عائلتي في أمسّ الحاجة إلى دراهم معدودات، وأمّي الّتي ناضلت كثيرا من أجلنا لم تعد قادرة على الأعمال الفلاحيّة الشّاقة، وأخوتي في حاجة إلى تعليم.

وبعد تردّد اتّصلت بـ«فوّاز». طلبت منه المساعدة، أخبرته أنّ عائلتي لم تعد تحتمل الجوع فقدّم حلاّ أشدّ مرارة. قال: أنت يساريّ وأختك «خوانجيّة»، يُمكنني مساعدتك بطريقة

واحدة.. أعرف أنّ ذلك سيكلّفني كثيراً ولكن بحكم صداقتي بك يُمكن ذلك، الحلّ أن تنخرط في حزب التجمّع الدستوري الديمقراطيّ، صعب أن يرضوا عنك.. ولكن بحكم نفوذي سأكون واسطة، حينها يرضى عنك النظام وتسقط عنك الجنحة وتوظّف في الحال، وأختك كذلك يُمكن الاستدلال بشهادة طبيّة تُثبت حصول مرض أجبرها على تغطية رأسها ثمّ نرفع قضية ضدّ زوجها للطّلاق وحينها يُمكننا إعادة توظيفها بانخراطها أيضا في الحزب.

ألقى «فوّاز» هذا الخطاب بحماس وصدق، كان فعلاً يُريد المساعدة، لكنّ كلامه نزل عليّ كالبرد أو لعلّه كالجمر، لم أنبس ببنت شفة، لو كان أمامي شخصٌ آخر لانهلت عليه لطماً ولكماً.. ولكنّه «فوّاز» كان السبب في دخولي الجامعة يوماً، أخبرته أنّي سأفكّر في الأمر والعائلة حتّى أتجنّب كلّ جدال قد يحصل بيننا.

خرجت من الوزارة واتّجهت نحو الجامعة حيث «فاطمة»، كُنت مرهقا أشدّ الإرهاق.. جلستُ أرقبها في المشرب الجامعي، ألقيت نظرة في وجوه الطّلبة.. في الجامعة هدوء حذر وكلّ الأصوات العالية قد انخفضت، أصبحت الجلسات بين الطلبة تُعقد سرّا في شكل جماعات.

وفجأة وأنا تائه أتأمّل الحيطان المتآكلة إذ دخلت

«فاطمة». تعانقنا طويلاً، وتبادلنا نبضات القلوب.. أخبرتها أنّ كلّ الطرق سُدّت وأنّ العائلة في أمسّ الحاجة إليّ الآن بعد أن طُرِدت أختي من العمل، أمضيت المساء في بثّ الشكوى وفي التعلّل بقسوة الحياة، وأهملت «فاطمة» ونسيت معاجم الحبّ والغزل.

قالت: الاستسلام من شيم الجبناء وما عهدتك كذلك، ابحث لك عن أيّ عمل، فكّر في حلّ.. سنة واحدة سرعان ما تمرّ وفي السنة القادمة تسقط الجنحة وتتحصّل على عمل يليق بشهادتك.

قلت: ولكن شهادة التّاريخ لا تمنح صاحبها سوى وظيفة، وأنا لا أُتقن أيّ عمل باستثناء التدريس أو التفكير.

قالت: أوَلم تكن بارعا في اللّغة الإيطالية؟ قلتَ لي إنّها لغة العشّاق. درسناها معاً شهادة تكميلية.

قلت: أعرف ذلك وأنا أتقن التخاطب بهذه اللّغة.. ولكن كيف تعود عليّ بالنفع.

قالت: يمكن أن تكون مراسلاً في إحدى الصّحف، ويمكن أن تكون دليلا سياحيّا في أحد النّزل، يمكن أن تكون مترجما.

قلت: وكيف السبيل إلى ذلك والموسم السياحي قارب على الانتهاء.

قالت: ولكن الإيطاليين يتوافدون باستمرار على «تونس»، تخاطب مع النزل لعلّك تظفر بعمل.

*****

الوقت يمرّ بسرعة مذهلة، الغروب على وشك الانقضاء، قالت «فاطمة» والفرحة تغمرها:

- الليلة تبيت في منزلي، لا مفرّ.. لم نلتق منذ أشهر اشتقت إلى حديثك.

رددت: ولكن زميلاتك لا يرضين بغريب عندهنّ.

قالت: ما زلن لم يلتحقن بعد بالكليّة، أنا وحيدة.. وهل ترضى أن أكون وحيدة.

اقتنينا من السّوق من الخضراوات والأسماك ما يمكن أن يُؤثّث سهرة ممتعة، في الحقيقة «فاطمة» صاحبة الدعوة وصاحبة المقتنيات لأنّ الإفلاس قد استقرّ بجيوبي وبالكاد وفّرت ثمن تذاكر السّفر إلى العاصمة.. في المطبخ تقاسمنا الأدوار، تكفّلت هي بالتنظيف وأنا بالطّبخ وشواء السمكات. وعلى مائدة العشاء تبادلنا الكثير من الذكريات بل استرجعنا ذكريات أربع سنوات من الحلم، كنّا نتبادل فيها الحبّ والتعلّم.. ضحكنا كثيراً واستعرضنا العديد من الطّرائف سواء مع زملائنا الطّلبة أو مع أساتذتنا. تذكّرنا ذلك الأستاذ الشّاب الوسيم أستاذ التاريخ الّذي رغب فيها زوجة، لم ترق لي تلك الذّكرى ولكن بصوت ممزوج بكثير من المرارة قلت:

- لو قبلت به زوجاً لكنت الآن ترفلين في النّعيم الّذي لا بُؤس بعده.

أجابت بلهجة عاميّة مباغتة: « ماصط، ماصط برشا».

زادت الإجابة من وجعي وتهت في تأمّلات لا نهاية لها لولا

كلماتها المتواصلة: أين أنت فيمَ تفكّر؟

أجبت ببرود: لو لم يكن « ماصط» لتزوجته.

ضحكت بصوت عال زاد من حيرتي، توقّفت عن تناول الطّعام ومسحت يديّ وتعللت بقضاء حاجة بشرية مباغتة ولكنّها استرسلت في الضحك وقالت: أهذا ما حيّر أمعاءكَ!! استدرت نحوها وألقيت نظرة مُريبة ولذت بالصمت، ثمّ قمت أطلب «الحمّام».. ولكنّها بسرعة ورشاقة قامت نحوي فاتحة ذراعيها وهي تقول: «كلّ رجال العالم لا يُعادلون همسة حبّ منك. وأنت أعلم منّي بمدى عشقي لك»

ولكن لمَ الاسترسال في الضّحك؟

لأنّ وضعك النّفسي جعلك تفسّر إجابتي على نحو معيّن، أقول لك لا تستسلم لليأس، وأكرّر قولي، وكان يُمكن أن تفسّر قولي تفسيراً آخر، فإذا كان هو « ماصط» فهذا يعني أنّك أنت لذيذ، وذاك ما قصدت.. وأنت لا تنفكّ تفسّر الظّواهر وفق وضعك النّفسي.. لا شكّ في أنّ هذه الأزمة ستمرّ بسلام وتستمرّ الحياة.

- ولكنّ نفسية الإنسان محدّدة لسلوكه، هذا ما تعلمته من علم النّفس.. ثمّ إنّي أكثر من أيّ وقت مضى أحسّ أنّ الآفاق قد غُلقت في وجهي من جديد، وأنا على يقين أنّ مأساتي الحقيقيّة قد انطلقت الآن.. كنت أهرب من المواجهة متعلّلاً بضرورة الحصول على الشّهادة أمّا اليوم فلا مهرب، لا بدّ من المواجهة.

قالت بثقة: ستنتصر ولكن بشرط الصّدق والثقة ولطالما

كنت صادقاً مع نفسك ومع المحيطين بك.

- الصّدق والثقة باتا من معاني العصور القديمة، اليوم هو عصر الانتهازية بامتياز.

- دعنا من هذا الآن. لنستمتع الليلة، لقد صحبت معي فيلماً نشاهده الليلة ونقضّي وقتاً ممتعاً لأنّ عليّ النوم باكراً لحضور أوّل محاضرة في المرحلة الثّالثة، والزمن كفيل بكشف ما تُخبّؤه لنا الأيّام.

استدارنحوها بطمأنينة قائلاً: كم أنت طاهرة نقيّة وبريئة، لهذا يزداد عشقي لك.

- كأنّك تخرج عن السيّاق ما الدّاعي إلى القول الآن.

- ما هذه الثقة في النّفس؟ أليس هناك حديث في موروثنا يقول: كلّما اجتمع امرأة ورجل تحت سقف واحد إلاّ وكان الشيطان ثالثهما.

ابتسمت وردت:

- ألم أحدّثك عن ثقة النّاس فيك، ثمّ أتؤمن أيّها الماركسي بذلك، ومع هذا دعني أجيبك: «لو شكّ العالم في طُهرك وثقتك ما شككت أنا يوما».

*****

في الصّباح أفقت وقد بلغت الشّمس الضحى. اتّجهت نحو الغرفة المجاورة أبحث عن «فاطمة» فلم أجدها. على طاولة المطبخ تعثّرت برسالة عليها مبلغ ماليّ. كُتب فيها:

حبيبي «مهديّ». شاءت الأمكنة أن تُفرّقنا، لكنّ حتما القلوب لن تفترق. أنا أنتظرك حبيبا إلى الأبد حتّى وإن تباعدنا جسدا لأنّ أرواحنا متعلّقة بعضها ببعض. لقد عاهدت نفسي وقلبي وروحي على الوفاء لك والثقة فيك. وجب أن نناضل من أجل أن نستمر ومن أجل أن نجتمع من جديد. تشبّث بالحياة، بالأمل، بالصبر، بالقوّة والعزيمة ولا تستسلم. ما الحياة إلاّ رحلة نضال نركبها ونواجه أمواجها ونتصدّى إلى إعصارها. والمؤمن بالحياة هو الّذي ينتصر أمّا المستسلم فمنهزم لا تاريخ له.

أحببت مادة التّاريخ كما أحببتك لإيماني بأنّ الإنسان الحقيقي هو الإنسان الّذي يبصم تجربته في التّاريخ وينحت كيانه بنفسه، يواجه ولا يترك للأقدار إمكان تحديد مصيره. الحياة لعبة وجب أن نتقن كيفية إدارتها بالمحافظة على مبادئنا وقيمنا.

ثقتي فيك لا تنتهي ولن تنتهي أبدا. وحبّي لك سيخلّد عبر التّاريخ. هذا مبلغ بسيط من المال تقاسمته معك كما تقاسمت معك حياتي. ابحث عن عمل لتُعيل عائلتك وتساعدها.

حبيبتك إلى الأبد
«فاطمة»...

- ١٠ -

انقطع عن التذكّر أو لعلّ الذاكرة هي الّتي انقطعت سأل رفيقه الجزائري: لوكرّرت السؤال ألف مرّة: أيوجد كائن شبيه بـ «فاطمة»؟ أجيبك: لا وكلّما تردّد عليّ السؤال أكرّر الإجابة نفسها، «فاطمة» سحر لا ينضب، لقد حان الآن دورها بعد أن سنحت لها الفرصة، لقد عانت هي الأخرى العديد من الويلات نتاج ظلم النظام، وعلى الرّغم من ذلك لم ترضخ خوفا أو طمعا في منصب يليق بقدراتها وثقافتها وعلمها.

إنّها الثورة وعلى الّذين قُمعوا من أصحاب العقول أن يُعيدوا بناء وطن حقيقي لا ظلم فيه ولا عدوان.. المأساة في «تونس» يا صديقي أنّ «كوادرها» الحقيقيين قد أُبعدوا وظُلموا فتسلّق أشباه المثقّفين من المنتمين إلى النّظام واستحوذوا على المناصب، وإنّك تلمح في هذا الوطن فقراً مُدقعاً للعلماء وأصحاب الشهادات العليا والمثقفّين والأدباء والكتّاب والباحثين في حين يُسيطر على المال والأعمال الأميّون وذوو الثقافة المحدودة لأنّ النظام القائم لا يسمح بالارتقاء الطبقي والمالي إلاّ للموالين وإن كانوا من الفاسدين.

قال الجزائري: لا تعجب يا صديقي فنحن أيضاً نعيش المأساة نفسها، دولة بتروليّة ومع ذلك يعيش أغلب السكّان فقراً مدقعاً، والحكومات المتعاقبة لم تستطع تغيير وضع البلاد قيد أنملة، فقد هاجر أغلب سكّان المغرب العربي نحو أوروبا بحثا عن سدّ جوع ألمّ بهم، كان يُمكن أن تُفتح الحدود وتشترك الشعوب والحكومات في النهوض ببلداننا، أرأيت - دين واحد، ولغة واحدة، وحدود مُشتركة، وتاريخ واحد ومع ذلك لا نجتمع بل نختلف ونتصارع من أجل لا شيء.

قال: لنطلّ على أحداث الثورة، لعلّنا نظفر بالجديد.. كلّ القنوات التلفزيّة تقدم برامج حواريّة.

قلّب صفحات هاتفه، مفاجأة أخرى من العيار الثقيل إنّه «عبد الودود» يحاضر في إحدى البرامج، ملامحه لم تتغيّر لكن تحوّلت نحافة جسمه إلى امتلاء فأصبح شبيها بعملاق، لم يكفّ عن الكلام وبين الفينة والأخرى يُذكّر بنضاله ودخوله السّجن وحرمانه من عائلته، قال إنّ النضال منذ كان طالباً لم يكن سوى لبناء «تونس».

ازداد «المهديّ» تعجّباً من هذا الخطاب فهو يعرف «عبد الودود» منذ صباه ولكن لم يعرف البتّة أنّه قياديّ في إحدى الأحزاب الإسلاميّة، ألهذا الحدّ كان كتوما؟؟ أم أنّ حزبه قد فرض عليه كلّ هذا الكتمان، صحيح أنّ «عبد الودود» كان يختفي أيّاما، كان يتعلّل بتردّده على جامعة الزيتونة لإكمال

بحثه، ثمّ إنّه كان لا يخفي مقته للسياسة ويرفض الخوض في المسائل السياسية لأنّها مسائل لم تعد لها معنى في ظلّ نظام بوليسيّ، وهل كان النظام على حقّ عندما اعتقله؟ بمعنى آخر هل كان فعلا «عبد الودود» ناشطاً سياسياً؟ سؤال لم يخطر له طيلة السّنوات الماضية.

لقد تعاطف مع عائلته كثيراً وقدّم لها المعونة وكان من الممكن أن يُسرف الكثير من الأموال لإخراجه من السّجن لو طُلب منه ذلك.. وكلّما فاتح زوجته في هذا الموضوع عبر أحد الأصدقاء إلاّ وتغاضت عن الموضوع، الآن فقط أدرك «المهديّ» أنّ السياسة هي لعبة التخفّي بامتياز، وأنّ «عبد الودود» كان داهيّة في هذا المجال.

لمّا كان «المهديّ» شارد التفكير باغت الصحافي «عبد الودود» بسؤاله: هل ستسعون إلى الحصول على تأشيرة لحزبكم؟ وإذا كان الأمر كذلك هل ترغبون في الصّعود على منصّة الحكم؟

تردّد قليلا ثمّ قال: إنّما نحن نناضل منذ أربعين سنة من أجل خدمة الوطن لا غير، وليس لنا غاية من النضال سوى المساعدة في ازدهار البلاد وتقدّمها.

لم يرق لـ «مهدي» هذا الخطاب، عرف أنّ السياسيين جميعا إنّما يناضلون من أجل طموحاتهم الشّخصيّة، وكم كان له من أصدقاء مناضلين سرعان ما غيّرتهم المناصب

السياسية فباعوا ضمائرهم وقضاياهم، ممارسة السياسة أضحت في نظره ضرباً من الوهم والخديعة، وإنّما السياسة الحقيقية تكون في الجامعة عندما كان السياسي يناضل من أجل المبدأ.

تذكّر تلك الأيّام الّتي اعتلى فيها المنابر لإلقاء الخطب، كان مناضلاً سياسياً شرساً ضدّ الحكومة، وضدّ الإسلاميين وضدّ التوحّش بجميع أصنافه، كان الزمن خصباً و«تونس» منقسمة إلى ثلاثة أقطاب كُبرى: الدستوريين واليساريين وصعود جديد للإسلاميين.. كانت له رؤية جديدة لليسار الاشتراكي، لم يكن يحلم بالعدل الاجتماعي فقط بل يريد إعادة توزيع الثروة فتكون حكراً على المتعلّمين فقط لأنّ العامّة، في نظره، قد دمّروا الثروة الوطنيّة.. وفي المقابل يعترف لـ«بورقيبة» سماحه للفقراء بالارتقاء الطبقي عن طريق العلم لكنّه لم يغفر له ، البتّة، سوء توزيعه للثروة الوطنيّة.

كانت معظم خطبه تصبّ في هذا الباب فتمرّد كثيراً على أصدقائه اليساريين في العديد من المبادئ والأفكار، لأنّه يؤمن بمبدأ مخالف لليسار وهو الرأس المال الذّاتي، معتقداً أنّ للعبقرية الذّاتية دوراً مهمّاً في الارتقاء بالإنسان وهي ثروة ذاتية لا يشترك فيها مع الآخر.

هذه الآراء وغيرها جلبت له العديد من الأنصار، وكانت حلقات نقاشه مع «فاطمة» قد طوّرت كثيراً من نمط تفكيره، لا سيّما بعد اطّلاعه على العديد من التجارب الاشتراكية،

وبدأ مشروعه في التشكّل هو محاولة دمج المبدأ الاشتراكي الاقتصادي العام مع بعض التّجارب العربية القديمة، معتقداً أنّه يمكن الإفادة من مرحلة التطوّر الّتي شهدتها الفترة الإسلامية الأولى وتطعيمها ببعض الأنظمة الاشتراكية الثورية الحديثة يساعد على الخروج بنظرية اقتصادية حديثة تنطلق من الذّاتي لتنتشر عالميا.. ناضل كثيراً من أجل هذه الفكرة، ولكنّ ذلك أدّى سخط الكثير من أصدقائه عليه.

أنشأ و «فاطمة» خليّة من الأنصار تنشط بمفردها، محورها الأساسي الفكر اليساري دون أن تنغلق على بعض التجارب الأخرى المفيدة والنّاجحة، تطوّرت هذه الخليّة شيئاً فشيئاً وتوسّعت داخل الجامعة وخارجها، ولكنّ السلطة الحاكمة لم تكن تسمح بتأسيس أحزاب معارضة ولا جمعيات ذات توجّه سياسي، لذلك احتدّ الصراع مع السلطة المستبدّة ذات التوجّه الرأسمالي المتوحّش ومع الإسلاميين المنغلقين عن التطوّرات الّتي تحدث في العالم، صراع طوّر كثيراً من تجربته السياسيّة فتعلّم المناورة وطرق الحشد الشعبي ومناهج مخاطبة الجماهير.

لقد شكّل مع «فاطمة» ثنائياً مميّزاً، تفوّق في الدّراسة ونجاح كبير في جلب اهتمام المثقفين من الطّلبة فانتشرت خطبهم داخل الجامعة وخارجها. ولكن مشروعه لم يكتمل بعد تخرّجه.

- ١١ -

عاد إلى صديقه الجزائري مخاطباً: قرأت رسالة «فاطمة» مراراً وتكراراً.. كانت تلك الرسالة بمثابة جرح مزّق كِبري إرباً إرباً، وعلى الرغم من براعتها في المحافظة على كبريائي تعلّلت بالخروج باكراً لحضور المحاضرة ولكن في الحقيقة هي أكثر النّاس معرفة بطبيعة شخصيتي، مدركة أنّي لن أقبل منها أموالاً وأنّ نفسي لها من العزّة والكرامة ما يمنعها من أن تمدّ يدها، ومع ذلك تعلّلت بضيق الوقت وقدّمت لي خطبة بارعة عن الحبّ السرمدي المتغلغل في قلبيْنا حتّى أقبل منها الهديّة.

كنت أؤمن أشدّ الإيمان أنّ التّاريخ لا يُعيد نفسه ولكن تجاربي أثبتت خلاف ما اعتقد، ففي كلّ مرّة تشتدّ بي الأزمات أجد امرأة تقدّم لي الحلول المناسبة، قديماً فتحت لي أمّي أبواب الجامعة، ثمّ عبدت لي أختي الطّريق للحصول على شهادة الأستاذية ثمّ «فاطمة» تنتشلني من بؤس التسوّل إذ لا أملك حينها ثمن تذكرة السّفر إلى منزلي فأجد حزمة من الأوراق ثمّ فيما بعد تعترض سبيلي الإيطاليّة « مريّا».

أكلّما انتشلتني امرأة من براثن البؤس أتنكّر لها؟! المرأة روضة ولا شكّ ولكن مرارة الحياة ترغمني على التنكّر، لقد

عرفت تضحيات أمّي وأختي و«فاطمة» بيد أنّ لـ«مريّا» قصّة أخرى شبيهة بالمدّ والجزر، أوقعتني في شراكها فوقعت وكان وقوعي بمثابة الشَرَك لها، فقد غيّرت «مريا» مسار حياتي قلبتني رأسا على عقب، أرغمتني بسلاسة لا عهد لي بها على المكوث في نعائم جحيمها والرفل في جنّة شقاوتها.

وبعد أن أنهيت رسالة «فاطمة» حزمت حقيبتي الرثّة وهممت بالمغادرة غير أنّ نفسي أبت، لم تستطع الرحيل دون «فاطمة»، جلست على طاولة المطبخ وطفقت أترشّف من قهوة «فاطمة»، قهوة لذيذة بطعم سحرها ثمّ أخذت القلم والقرطاس وكتبت:

« أعرف أنّك أذكى من أن تخدشي كبريائي غير أنّ من تعوّد أن يمدّ يده لامرأة مرّة لا شكّ في أنّه سيكرّر الفعل مراراً، وها أنا أكرّر الفعل نفسه في سياقات مختلفة، سآخذ الأموال اضطراراً فالحياة أقسى من أن أرفض، فقد أجبرتني رسالتك هذه على أن أخوض مغامرة الوجود.. هي مغامرة أتعهّد فيها إمّا بالموت سبيلاً في قطع اليد السُفلى وأجعلها عليا أبدا وإمّا الفناء في التوحّش، لقد غامرت سنيناً طوالاً من أجل لحظة مساواة وعدل بين كلّ الأجساد ما دامت «العقول أعدل الأشياء توزّعا بين النّاس» وسأناضل من أجل الحقيقة، حقيقة إنسانية الإنسان ولن أكون إلاّ وأنا أحمل بين شرايين قلبي المتدفقّة حماسا.»

وضعت الرسالة على الطاولة وودعت المكان نحو منزلنا، وفي طريق العودة اقتنيت بعض المستلزمات الضروريّة للعائلة، أعرف أنّ أمّي لم تدّخر جهداً في إعالة العائلة غير أنّ حماس الشباب بدأ في الأفول إذ خارت قواها بعد المصائب المتتالية الّتي حلّت بنا لا سيّما بعد الرفت التعسّفي لأختي من العمل، وصلت المنزل بعد الغروب، وأثناء رحلتي فكّرت في السفر إلى جزيرة الأحلام بحثاً عن عمل يحفظ الكرامة، وفي الوقت الّذي نزلت به المنزل استأذنت في الخروج نحو «جربة» ودّعت العائلة ومررت بالمقهى.. اضطررت لسماع خرافات «حمّة القهواجي» وحكاياته الأسطوريّة حتّى يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وأشدّ الرحيل، طلبت منه بعض الأموال سُلفة تردّ له حين عودتي من السّفر وأوصيته خيراً بأمّي وإخوتي، «حمّة» وإن كان من الطبقة الشعبية كثير الثرثرة، جامع للأخبار، كثير الوشاية للعمدة فإنّه ذو قلب رحيم لا يتوانى في مساعدة الفقراء والمحتاجين سرعان ما تترقرق الدموع بعينيه كلّما اعترضته مشاهد مأسوية، ولا أنس بكاءه المسترسل لحظة وفاة والدي.

«حمّة» مثلي تماماً أصابه الأرق في تلك الليلة، رغب عن العودة إلى منزلهم، قرّر أن يمكث في المقهى. فرح كثيرا لمّا أخبرته بالمبيت عنده، فرح كثيراً بوجود من يُؤنس وحشته ووحدته.

بعد أن سكن اللّيل جلسنا نتجاذب أطراف الحديث اغرورقت عيناه دموعاً وتعالى الشهيق، حدّثني قائلا: وجع

فقدان الحبيب أهون كثيرا من تذوّق مرارة الذل، وردة يا صديقي، وردتي الّتي أسقيها حبّاً وحناناً وعطفاً قد قُطفت وأصبح عطرها يفوح وينعش غيري.

لم أحس بمرارة وجعه فقلت له: ضاعت وردة هباء فلتأتي زهراء. لمَ كلّ هذا الحزن؟

نفث دخّان سيجارته وقال: ليس ذلك فحسب. فقد تناست وردة كلّ السنين الّتي كنت ساقيا لها راعياً لجمالها مُحافظا على شرفها، كنت أتعهدها لتكون شريكة عمري والوردة تغمرني بعطرها وجمالها ولمّا نضجت وحان قطافها تأبى وتتنكّر، لقد خُطبت لغيري وتنكّرت لي، حاولت مراراً أن أقنعها بالعدول عن قرارها ولكنّها رفضت بل عمّقت من جراحي، قالت بجرأة لم أعهدها: خطبت لموظّف مرموق في الدولة بإمكانه أن يحميني ويوفّر لي عيشاً كريماً.. أمّا أنت فمجرّد عامل في مقهى.

ولم تقف عند ذلك الحدّ بل أخبرت « خطيبها» بمضايقاتي لها وإلحاحي الشّديد في معرفة سبب جفائها المفاجئ، وما كان منه إلاّ هددني علناً في المقهى وأقسم على أن يقطع رزقي ويزجّ بي في السّجن إن لم أكفّ عن صنيعي.

تُفتكّ وردتي وأُهدّد علنا، هل يمكن مقاومة كلّ هذه الأحزان؟

لم أستطع أن أفكّر في هموم «حمّه» ولا تمكّنت من مواساته لأنّ مأساتي أعمق من حبّ فتاة، وقبل أفول النجمة القطبية تسلحت بالعزم والحزم وكنت مع منتصف الحلم في

جزيرة الأحلام.. لم يكن الأمر يسيرا، فارقنا الصّيف، والموسم السياحي انقضى والعالم يشهد أزمة خانقة مع اندلاع حرب الخليج وسيطرة البوليس السياسي في «تونس» في كلّ منعطف تتعرّض للتفتيش والملاحقة بل للسبّ والشتم أحياناً ولا حقّ لك في الاعتراض، تقدّمت إلى كلّ النزل الموجودة بمطالب شغل، بتّ على أرصفة الشّوارع، في السّاحات العموميّة، في المقاهي، في العلب الليليّة ولا من مجيب اضطررت إلى التوسّل أو ربّما إلى التسوّل، اشتغلت في غسل الصحون، في تنظيف المقاهي، في حضائر البناء حتّى أوفّر لقمة الغداء والعشاء فالدراهم المعدودة الّتي اقترضتها قد ضاعت هباء منثورا.

وفي كلّ مساء أضطرّ إلى الجلوس في المقهى على شاطئ البحر لأستريح قليلا من تعب الركض هنا وهناك، وبعد أن أجوب كلّ المقاهي المتواجدة على ضفاف المتوسّط بحثاً عن عمل أسدّ به الجوع، في تلك المقهى نادل من الشمال الغربي أشفق على حالتي فكثيرا ما كان يتوسّل إلى صاحب المقهى كي أعينه في التنظيف مقابل المبيت هناك أو بعض الدنانير القليلة... وذات ليلة بعد الانتهاء من عملية التنظيف طلب منّي مشاركته في الطّعام الّذي يأتيه به أخوه كلّ ليلة من النزل الذي يشتغل به.

وبينما أنا أطفئ وجع الإحساس بالجوع إذ دخلت المقهى امرأة غجرية شقراء، سحبت كرسياً من بين تلك الكراسي

المرصّفة، أشعلت سيجارة وأخذت تنفث الدخّان ثمّ خاطبت النّادل بلغة إيطالية:

- أريد نرجيلة.

لم يستطع نادل المقهى الإجابة بقي مشدوهاً فهو لا يتكلّم اللّغة الإيطاليّة، كما أنّ المقهى ما اعتاد أن يتوافد عليه السيّاح الإفرنج.

قال «مهديّ»: أنا أتكلّم الإيطالية فقد طلبت «شيشة» هل يمكن أن توفّر لها ما تريد.

قال النّادل: كيف السبيل إلى ذلك و«صنّاع الشيشة» قد غادروا؟ وعلى الرغم من ذلك فلنجتهد إنّهم يدفعون بسخاء، أنا أتكفّل بإحضار النرجيلة أمّا أنت فعليك بتقديمها وافعل ما بوسعك كي تنال منها أكبر مبلغ ممكن ما دمت تحسن اللّغة الإيطالية.

وبينما يعدّ النادل الشيشة بقي «المهدي» يرقبها، امرأة غريبة تشعل السيجارة تلو الأخرى، تنفث الدّخان عالياً تلاحقه بيدها ولكنّه ينفلت منها ويصعّد عالياً ثمّ تنفث الدخّان في الأرض وتحاول أن تدوسه بقدميها غير أنّه ينتشر في الأرض، تكرّر الفعل دون توقّف.

وفجأة نظرت نحوي وقالت: طلبت شيشة أين هي، أنتظر منذ زمن بعيد ولكنّكما لا تعيراني الاهتمام.

حاول أن يهدّئ من روعها، أن يمتصّ غضبها حتّى يأتي النّادل، غير أنّ الغضب قد سيطر فقامت مع وصول النّادل، رفضت الجلوس على الرغم من محاولات إقناعها، قالت إنّها كرهت المكان الرديء الشبيه بحالتهما الرثّة، لم يفهم النّادل ما قالت أمّا «المهديّ» فقد شاط غضبا وانفلتت منه كلمات جارحة نحوها، اشتدّ بينهما الشّجار إلى حدّ وصل إلى محاولة اللّطم لولا تدخّل النّادل.

اشتدّ به الغضب تلك الليلة، لقد طمع في بعض الأموال من تلك الإيطاليّة يتقاسمه مع النّادل ثمناً للنرجيلة كي يسدّ به ألم الإفلاس فلم يوفّق، كلّ أبواب العمل قد غُلّقت في وجهه، لم يجد ما يسدّ رمقه ويكسر جوعه ويحدّ من آلامه، تهالك على الكرسيّ وصدره يعلو وينخفض بعد أن اعتلت الحمرة وجنتيه.

خاطب صديقة النّادل والوجع ينبعث مع كلّ زفير يتناثر من أنفه: لم يعد لي من أمل سوى أن ألقي بنفسي في اليمّ فيأكلني الحوت أو يلقمني كما فعل مع النبيّ يونس.

أجابه الصديق: ما الفرق بين أن يأكلك أو يلقمك؟

التفت نحوه ضاحكا ضحكة تكشف عن حيرة عميقة: الأفضل ألاّ تفهم.. وما فائدة الفهم؟

قال النّادل: المهم أنّي أعرف كيف تؤكل الكتف.

أجابه: ذلك عين الصّواب.

قال الصديق: أنت شابّ مثقّف ومتحصّل على شهادة

وتتقن التخاطب بعديد اللّغات الأجنبيّة ومع ذلك لا تعرف من أين تؤكل الكتف.

قال بِحيْرة أشدّ: إن أصابتك اللّعنة فلا معنى لإتقانك الأشياء.

- لعلّه القدر. لا تعلم كيف تُسطّر حياتك.

نظر إليه وقال بسخرية: إنّه القدر؟؟

- إنّى أرثي لحالك، أسعى إلى مساعدتك أولعلّ الدنيا «تفتح في وجهك» وينالنا منها نصيب، إنّ أخي يعمل بنزل يتوافد عليه الإيطاليون بكثرة، وما دمت تتقن الإيطاليّة فاصطحبه صباحاً لعلّه يكون واسطة لك.

في تلك الليلة لم يصوّب النوم نحو جفنيّ، تطيّبت في المقهى بعد أن استأذنت من النادل الطيّب في الاستحمام وتغيير ملابسي، وفي الصباح عزمت على أن استدعي كلّ مخزوني اللغوي للإقناع، لا أعلم إن كان قدراً محتوماً مسطّراً كما يقول أبي أم هي الصدف.

في قاعة الاستقبال أنتظر صاحب النزل لعلّي أخرج من البؤس ولو إلى حين تنقلب حياتي رأساً على عقب.

«مريّا»، إنّها «مريّا» تلك المرأة الإيطالية التّي اشتدّ بيني وبينها شجاراً في الليلة السّابقة تنزل من غرفتها في هيجان غير طبيعيّ سبّاً وشتماً لاعنة النزل والعاملين فيه وأوّل اصطدامها

كان بي أنا إذ لم يكن في قاعة الانتظار غيري، حاولت مراراً أن أقنعها أنّي لست من العاملين ولكنّي لم أفلح، بل كرّرت الشتيمة والاحتقار منّا نحن العرب ومنّي أنا بالذّات ذلك أنّها افتقدت مصوغاً لها كان هديّة أبيها قبل وفاته وأنّها تحتفظ به للذكرى، قائلة أنت تلاحقني منذ ليلة البارحة تريد سرقتي.

في الحقيقة لم احتمل تلك الشتائم وتلك العنصرية البادرة منها، رددت عليها بنفس الخطاب بل بلهجة أشدّ وصل إلى تبادل العنف بيننا، وهو ما أدّى إلى اقتيادي إلى قسم الشرطة أين فتح تحقيقاً تعدّدت فيه التهم منها القديمة وهي النشاط السياسي في حزب غير مرخّص له في الجامعة، والعنف المسلّط على المرأة الأجنبية – مع أنّي كنت أنا المُعنَّفُ – ثمّ الدخول إلى مكان، وهو ساحة النزل، دون إذن أو ترخيص.

كلّ تلك المكائد تؤدّي إلى ما لا يقلّ عن عشر سنوات سجناً فالتهم تنوعت والأحلام انتهت والنفس شُرّدت ولم تعلم بأيّ ذنب دمّرت.

*****

بعد أيّام معدودات تجالسنا على ضفاف البحر، قدّمت اعتذاراتها عن الشتائم البادرة منها نحوي، وما فهمت من كلامها أنّها لا تريد أن أعتذر عن اللطمات الّتي تلقتها من يدي، حدّثتني وكانت عيناها تحدّقان في وجهي ولا تنزلان من

على عينيّ: أنّها لم تتلق صفعة في حياتها وهي تحتفل بنهاية العقد الثالث من حياتها، قالت إنّها قضّت ثلاثين سنة ترفل في نعيم أعدّته لها العائلة، وهذا النّعيم لم يعد له معنى بعد أن توفيّ والدها غدراً وبعد شهر لحقته أمّها نتيجة تأثير صّدمة موت زوجها، ومنذ تلك الحادثة وهي تعاني من كوابيس وأحلام مزعجة وباتت تخامرها خرافات منها سرقة ممتلكاتها ومجوهراتها الّتي اشتراها أبوها، تلك المجوهرات تعدّ الذكرى الرابطة بينهما فهو يقتني المجوهرات ويجهّز ابنته استعداداً لحصولها على فارس أحلامها، ولمّا انتقل أبوها إلى العالم العلوي اشتدّت بها الأزمة دفعتها إلى الهروب من وحشة المكان.

وعلى ضفاف ذلك البحر تعدّدت اللقاءات بيننا، ولا أعلم إن كان هذا البحر هو الرّابط أو الحاجز، تبادلنا أطراف الحديث..

حدّثتها عن الجامعة، عن الظروف السياسية والاجتماعية ببلادنا، عن وضعية عائلتنا، عن أبي، عن «فاطمة»، عن أختي.. حدّثتها وفي النفس حرقة لا تنضب ولا تنتهي، بُحت لها بجميع أسراري، كان حديثاً صادقاً ينبعث من أعماق الصدر وكثيراً ما يعقبه الكثير التأوّهات والشكوى من ظلم القدر، الدولة، وحتّى ظلم المجتمع.

حدّثتني عن مأساتها ولعلّها أشدّ عمقا من مأساتي، فأنا أمتلك العائلة، الحبّ والحنان.. وحرمت منها هي، فارقتها

العائلة في أقلّ من شهر وهي لا تعرف للحياة وجوهها وقد تركت لها من الأموال والشركات ما لا يُحصى ولكنّها أموال بلا معنى ولا طعم، افتقدت الحبّ والحنان وهي معان لا يمكن الحصول عليها بالعمل أو مَا شابه ذلك، منذ أشهر وهي في الجزيرة هروباً من الوحدة والوحشة، يشتدّ بها الألم كلّما عادت بها الذّكرى إلى روما. لذلك تأبى العودة.

بعد إلحاح شديد منها اتفقنا على أن أساعدها في الخروج من هذه الوحدة وأن أتفرّغ لتعريفها بالمناطق التونسية التقليدية منها والصحراوية بمقابل ماديّ يكون أجراً، قبلت هذا العمل لدواعي إنسانية فعلا أكثر من حاجتي له، كنت سخياً معها في قلب بؤسها إلى فرح ومأساتها إلى سعادة وحزنها إلى ضحك، وكانت سخيّة معي في الالتزام بأجري اليومي فسددت سُلفة «حمّة» نّادل المقهى وأرسلت إلى عائلتي ما يكفيها لسدّ لحاجياتها أو يفوق.

الأيّام تمرّونحن على تلك الحال بل توطّدت العلاقة بيننا أكثر. أحدّثها عن العائلة فتشتدّ شوقا لرؤيتها، وأحدّثها عن «فاطمة» فيشتدّ بها الوجع والحزن، بعد زهاء شهرين اشتقت إلى «فاطمة». منذ تركت الرسالة على طاولة المطبخ لم استمع إلى أخبارها، قررت النزول إلى «تونس» العاصمة فقد اشتدّ بي وجع الحبّ، لابدّ أن أرى «فاطمة» قبل عطلة الشتاء، حان الوقت كي آخذها في أحضاني، نتجوّل في العاصمة، نتناول

سمكاً في حلق الوادي وشباتي في باب الخضراء، نتناقش في وضع البلاد ونتهامس حبّا و«نتعاشق» فاللهفة إليها لم تنقطع بي.

أخبرت «ماريا» بما عزمت عليه، لم تُبدِ رفضاً بل اقترحت عليّ أن يكون السفر ذهاباً وإيّاباً بالطّائرة وتذكرة السفر هدية منها إضافة إلى هديّة أخرى إلى «فاطمتي» تليق بمدى عشقها لي، لم أستطع الرفض فقد تعللت بقرب شفائها وعودتها إلى الحياة الطبيعية وإذا غبت عنها لزمن قد تشتدّ بها ويعاودها المرض والاضطراب النفسي.

اليوم الأربعاء قررنا أن يكون السّفر في نهاية الأسبوع وهذا الوقت كاف للاستعداد. خرجنا إلى الأسواق تكفّلت بشراء بذلة أنيقة لي وهديّة مناسبة لـ«فاطمة»، أقنعتني أنّ إسعادي و«فاطمة» يريحها ويغيّر من حالتها النفسية نحو الأحسن، في هذه الأيّام انخفضت عصبيتها وسيطر اللّين على تصرّفاتها بعد أن كان الغضب يمتلكها ويغيّر من شخصيتها نحو الأسوإ.

قبل يوم السفر طلبت منّي أن نتناول العشاء سويا في غرفتها ونحدّد بالمناسبة برنامجاً حياتياً يومياً يساعدها على الحدّ من وطأة الوحدة إلى حين عودتي، في غرفتها كلّ ألوان الطّعام ونبيذ لا أعرف «ماركاته»، وشموع توحي بالاحتفال، قالت إنّ المأدبة هدية شكر على ما قدّمته لها.

*****

أفقت من غيبوبتي على صراخ « ماريا» وعويلها، كانت تشير إلى الكاميرا وتقول: هذا الشّخص أراد أن يتمكّن منّي، كانت تردّد ذلك وهي تنتحب وتبكي.

في قسم الشرطة ألقيت في حجرة ضيّقة منفردة ومظلمة، يُلقى لي بعد الغروب أكلة متعفّنة من فضلات الموقوفين والعملة هناك.

وبعد أربعة أيّام من التوقيف خُيّرت بين خيارين يبدو أنّ «ماريا» هي الّتي قرّرتهما: إمّا حكم المؤبّد أو الزواج بها، الكاميرا شاهد عليّ ولا أعلم لماذا حاولت اغتصابها وكيف تجرّأت على ذلك، «ماريا» امرأة إيطالية جميلة وشابّة تغري كلّ إنسان غير أنّي لم أفكّر فيها البتة فحبّ «فاطمة» يمنعني من ذلك، لعلّ تأثير الخمر الّتي لم أعتد شرب تلك الأنواع العجيبة منها أو لعلّ إغراءها لي بإظهار مفاتنها.

ما رأيته في الكاميرا أنّي أحاول أن أنال منها وهي في لباسها الشفّاف المغري.

في قسم الشرطة أمضيت على «صداق» الزّواج، لا أعرف كيف رتّبت «ماريا» حياتنا وكيف استطاعت في أشهر قليلة من تدبير أمر سفرنا، وعلى الرّغم من هَجري لها على فراش الزوجية فإنّها تبدو امرأة سعيدة بل في غاية السّعادة، كانت تردّد باستمرار أنّ سرّ سعادتها هو ظفرها برجل شرقيّ طيّب يمتلك قلباً لا يكفّ عن الخفقان.

كانت شديدة الإيمان بنجاح علاقتنا وتطوّر حياتنا وفي المقابل كنت أنتظر الفرصة المناسبة حتّى أتخلّص منها، ولكنّ الطلاق لم يكن بالأمر الهيّن، فالقوانين الغربية / الإيطالية صارمة في تحديد العلاقات الزوجيّة فهي تفرض على الزوج تأمين السّكن والأكل لطليقته وهذا أمر ليس باليسير عليّ وأنا الغريب الفقير.

وعلى نفوري المتواصل منها كانت شديدة الحرص على التقرّب منّي، وعلى اصطحابي إلى شركتها السياحيّة العملاقة ولا تنفكّ تطلعني على أسرار العمل وكيفية إتقانه.

سنة مرّت وعلى الرغم من ذلك لم أنس «فاطمة» ولا يُمكن نسيانها فهي المرأة الوحيدة الّتي أدّت إلى فيضان مشاعري، وفي المقابل لم أستطع أنْ أحبّ «ماريا» ولكنّي تعوّدت على وجودها في حياتي ومعاملتها الحسنة ورغبتها في التكفير عن ذنبها إذ تقدّمني في شركتها على أنّي زوجها المحبّب وشريكها في العمل ثمّ لا تنفكّ تتصل بعائلتي وتقدّم لهم المساعدات بأنواعها المختلفة.

تقدّمت الأيّام والسنون وأصبحت أباً لبنتين جمليتين وزوج لامرأة جميلة ومطيعة تسعى إلى إسعادي بشتّى الطّرق.

وأثناء إقامتي في إيطاليا أحسست بفراغ رهيب ووجع ليس بعده شفاء، ازددت نقمة على ذلك الحكم الغاشم الّذي شرّد عائلتي ومنعني من العمل في بلدي وحفظ كرامتي، كتبت في

البداية في الصحف الإيطالية عن الظلم والاستبداد في «تونس».. وبما أنّ معرفة التونسيين بالإيطالية محدودة لم تقدّم مقالاتي الصدى المطلوب لذلك غيّرت مواضع الهجوم وكتبت في الصحف العالمية والعربية، كانت المقالات أكثر جرأة حيث وجدت الحريّة في الكتابة بعد مساعدة «مريا» للصحف الّتي أكتب فيها عن طريق الإشهار، فكتبت عن الانقلاب النّاعم، عن وضعية «بورقيبة» في السّجن، عن تزوير الانتخابات، عن تحطيم المروحية الناقلة لضبّاط الجيش وتعمّد القضاء عليهم، عن زواجه الثّاني، عن الفساد في الرياضة، عن هيمنة الحزب الحاكم، عن صعود قوى جديدة فاسدة، .....

في البداية تعمّد إيذائي فضرب حصاراً على عائلتي ولمّا فشل في ذلك نتيجة تعدّد الشكاوى لمنظّمة حقوق الإنسان العالميّة فقد سعى في مرحلة ثانية إلى المقايضة العلنية.

كلّ تلك المقالات لم تشف الغليل فقد ضرب حصاراً على كلّ الصحف ومنع دخولها إلى «تونس» فغيّرت وسائل الهجوم لتكون القنوات التلفزية قبلتي، وفيها تحدّثت، قلت، كشفت العديد من الحقائق، هاجمت تسلّط النظام، انتشار البطالة في صفوف أصحاب الشهادات، الفشل في خلق التوازن الاجتماعي...

قلت ما كنت أريد قوله، لعلّ ذلك رغبة في كشف قصوري من جهة وللتكفير أيضا عن ذنوب اقترفتها، وبعدها كما قلت

لك سعى إلى المقايضة العلنية، استغلّ مرض أمّي منعها من الحصول على جواز سفر، بل منع السّفر عليها تماماً. اشتدّ وجعي، خفت أن تنشب المنية فيها أظفارها فيزداد وجعي بأن تُحمل إلى مثواها الأخير دون أن أودّعها.

أردت الرجوع إليها، أمّي رمز ضعفي وحيرتي. اشتقت إلى تلابيبها، إلى رائحتها العطرة، خفت أن أفقدها في غفلة منّي كما فقدت أبي إلى الأبد، كان صدى صوتها في الهاتف يدغدغ نبضات قلبي ويدعوني سرّا وعلانية إلى الرّجوع.

اشتدّ بها المرض، قالت في مكالمتها الأخيرة إنّ موعد رحيلها قد حان فدعتني إلى النزول حتّى تودّعني وتسلّمني وصيّة السّهر على إخوتي.

تنصّتوا على مكالماتي الهاتفية. تغيّر خطابهم نحوي. كان النظام داهية في استقطاب المعارضة، وفي آخر لقاء تلفزيوني لي تغيّرت نبرة خطابي: قلت إنّ «تونس» لم تتأثّر بالأزمة العالميّة منذ بدايتها ويعود ذلك إلى حنكة اقتصاديها وتماسك نظامها.

على إثر اللّقاء تواترت المكالمات الهاتفية الدّاعية للمُصالحة بيني وبين النظام، لم أنكر ذلك في العديد من المناسبات بل كاد تتحوّل الهجومات الشّرسة إلى ضرب من المديح.

وفجأة في غفلة من الجميع اندلعت الثورة.

- ١٢ -

تلك المرحلة الّتي مرّت وأنا في إيطاليا، كانت شديدة الاضطراب لاسيما على المستوى النّفسي، عشت المدّ والجزر سواء مع زوجتي «مريا» أوفي علاقتي الخارجية في «تونس» وفي العالم. وليس بالأمر اليسير أن أتأقلم.. إيطاليا بلد مربك على جميع الأصعدة: في الحياة الاجتماعية والعمليّة والعائليّة.

حياتي مع مريّا ملؤها المدّ والجزر، لا أنكر مدى صبرها معي، كما لا أُنكر مدى عشقها لي، بعد أن كانت وحيدة وجدت من يؤنسها في الحياة، فلم تكن متألّمة من فقدان أبويها فقط تألّمت أكثر من خطيبها القديم «بول».. خلّف في نفسها أزمة لن تنساها. وعلى إثرها ما عادت تثق في الشبّان الأوروبيين بل فقدت، لزمن، الثقة في جميع الرّجال.

ولا تعود تشنّج العلاقة بينها وبين «بول» إلى الخيانة فقط وإنّما إلى أشياء أخرى أكثر قهراً، وهو ما أثار فيّ تعاطفاً كبيراً معها.. روت قصّتها بحرقة ولا تكاد الدموع تكفّ عن السيلان وتلك المرّة الأولى الّتي أرى فيها «مريّا» تضعف.

تعرّفت على «بول» وهي في سنّ المراهقة، كان يكبرها بعشر سنوات، هي في سنّ الخامسة عشروهو في الخامسة والعشرين

ورغم فارق السنّ أحبّته، وتعمّق حبّها له نتيجة ملاحقته لها باستمرار، كانت تعتقد أنّهما اجتمعا صدفة أو أنّ القدر هو الّذي حدّد لهما اللقاءات المتكرّرة، لم تعلم إلاّ بعد أن وقعت في حبّه أنّ «بول» يكون ابن مدير الشركة السياحيّة الّتي كانت على ملك أبيها.

و«بول» كان إنساناً فاشلاً في حياته منذ نشأته الأولى نتيجة الدلال المفرط من قبل أمّه، فهو تلميذ فاشل في دراسته لم يحصل على أي شهادة جامعيّة إلاّ بالوساطات في أحدى الدول الشرقية في القارّة العجوز إضافة إلى الإفراط في التيه والاستهتار.

كلّ هذه العيوب يُمكن أن تُغفر لأنّ «مريا» تؤمن أنّ الإنسان لا يُمكن أن يكون متكاملاً، لكن عيوب «بول» أصعب من أن تتجاوزها طفلة بريئة، كان «بول» يعمل في شركة والدها باعتباره مهندساً للديكور، لم يكن بارعاً في عمله وعلى الرغم من ذلك خُصّص له مكتباً أنيقاً يتوسّط مكتبي مدير الشركة وصاحبها، يبقى في مكتبه طوال الوقت لاقتناص الفرص، وكلّما تردّدت «مريا» اعترضها بباقة من الكلام الجميل والورود الحمراء العطرة والفوّاحة، تعددّت اللّقاءات بينهما وسرعان ما تحوّل الإعجاب بـ«بول» إلى حبّ. «مريا» الّتي كانت تنقلاتها تنحصر بين المنزل والشركة والمعهد أصبحت تضرب مواعيد غرام فتبدّلت حالها وأقبلت على الحياة بملء جمالها الرّوحيّ والجسديّ، ضربت للسعادة والمرح والجمال كلّ المواعيد، تعمّقت علاقتها بـ«بول» إلى حدّ

أن قررت أن يكون شريكا لحياتها مدى الحياة.

وفي سنة التخرّج كان عمرها عشرين ونيف اكتشفت هويّة زوج المستقبل وكادت الصدمة أن تحوّل الحبّ إلى كُره لولا مباركة العائلتين، اجتمعت العائلتان وكان قرار زواجها بـ «بول».. اعتقدت أنّ هذا القرار سيسطّر رحلة سعادتها وفرحها غير أنّه حوّل السعادة إلى بؤس والفرح إلى شقاء، ليلة الحلم كان بارداً برود القطب الشمالي، لم يحرّك ساكناً ولا أثار جسداً ولا أبدى لهفة اللقاء بجسد فاتن، كانت تنتظر بلهفة أن يزرع في أرحامها قبيلة وكثيراً ما حدّثت أمّها برغبتها الجامحة في الإنجاب، على خلاف بنات جيلها فقد قررت أن تكرّس حياتها لبيتها وتنجب قبيلة من الأطفال، لا تريد جاهاً ولا مالاً ولا جمالاً بل تريد حشداً من الأطفال، بيد أنّ «بول» لم يكن الرجل المناسب وعلى الرغم من ذلك لم تيأس، جابت كلّ مستشفيات «روما» والمصّحات والعيادات الخاصّة، آمنت بخزعبلات الجنّ والشياطين في الهند وآسيا وإفريقيا ولم تفلح.. سنوات من الجهاد قوبلت بتوتّر حالتها وسرعة الغضب دون مبرّر، وطفقت حالتها تسوء وتنحدر نحو الجنون، أخبرها الطبيب أنّها تتناول أدوية لمرضى الأعصاب أدّى إلى سرعة تعكّر حالتها، كرّر ذلك مراراً ولم تقتنع بقول طبيب واحد فزارت آخر وآخر إلى أن أجمع جميع الأطبّاء على الرأي نفسه.

لم تُصدّق ما عنّ لها من خاطر. جعلت تراقب «بول»

تتجسّس على أعماله وحركاته فتّشت في أشيائه وحقائبه الخاصّة، لم تُصدّق ما وجدت في محافظه.. لقد صدق الأطبّاء.. ما هذه الخيانة العظمى؟

خمس سنوات من حياتها ضاعت هدرا بل انتهى بها الأمر إلى المصّحات النفسية للعلاج، ومع ذلك لم تيأس، اصطحبته إلى الأطبّاء النفسيين لعلّ حاله يستوي ويكفّ عن أفعاله ويستوي رجلاً وذكراً، وعلى الرغم من المحاولات الجادّة اكتشفت أمراً في غاية الخطورة لا يمكن على إثره أن ينصلح هذا الرّجل.. أجبرها على المكوث في مستشفى الأمراض النفسية لسنوات تشتت فيها العائلة ففقدت الأب والأمّ في زمن متقارب.

توقّف «مهديّ» عن الحديث. أشعل سيجارة جديدة بعد أن دفع بكأسين في جوفه وخاطب رفيقه الجزائري: نحن نعاني، في شمال إفريقيا، من الفقر أدّى إلى تدهور نفسياتنا والإحساس بالعجز فولّد في نفوسنا الإحساس بالنقص والغربة ونحن في أوطاننا، وهم يعانون من الترف أدّى إلى تدهور نفسياتهم وتوتّرها فولّد فيهم الحيرة والقلق والاضطراب النفسي، شتّان بين مأساتهم ومأساتنا وإن كانت النتائج نفسها، وقد أبدع الطيّب صالح في « الموسم» في تفكيك أوجه الاختلاف الجوهرية بين الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب، وإنّ إقامتي في أوروبا زهاء عشرين سنة

تساعدني على تفكيك العلاقة بين الشرق والغرب أكثر ممّا فعل ابن السودان، ولكن الوطن لم يترك لنا مجال التفكير ومتعة الكتابة.

أجاب الرّفيق الجزائري: لا تقف في منتصف الطّريق بعد التشويق الّذي أحدثته. أكمل ما حدث لـ «مريّا»؟ وما اكتشفت؟

- إن كان هذا همّك من الحكاية سأواصل السرد، ولكن إيّاك من خرافات الصبيان، قديماً تُحكى الحكاية لتنيم النّاس أمّا الآن فعليها أن تفيقهم.

لقد اكتشفت «مريّا» أنّ لـ «بول» صديقاً يعاشره منذ زمن بعيد، ولهذا سعى والداه أن يساعداه على الخروج من تلك المحنة ولكنّ الأمر يزداد سوءاً مع مرور الأيّام حيث أصبح «بول» كثير العداء للنّساء يسعى إلى اقتحام قلوبهنّ ولمّا يتمكّن من ذلك يدفع بالمرأة إلى الانتحار، وهذا ما حصل مع «مريّا» وغيرها كثير من النساء.. قال الأطبّاء المشرفون على علاجه إنّ دور المرأة الّذي يعيشه جعله يكنّ العداء للنّساء فيتعمّد إجبارهنّ على الانتحار، وهذا مرض نفسيّ نادر.

ونتيجة لهذا الأمر تدهورت حال «مريّا» نحو الأسوأ لما يدسّه في طعامها وشرابها من حبوب تُذهب العقل وتُضعف الجسد وتنشر حالات اليأس والإحباط في شاربها، فنشب عداء حادّ بين العائلتين وصل إلى حدّ التهديد بالقتل، وهذا ما

أدّى إلى تدهور الشركة السياحيّة العملاقة وتقلّص إيراداتها بكيد من والد «بول» المدير لها والمشرف العام على مبادلاتها وأعمالها، هذا الأمر أفاض الكأس وأدّى إلى التشنّج المتواصل وهلاك عائلة «مريا» الّتي بقيت وحيدة تعاني مشاكل متنوّعة.

ولا تقلّ الصّعوبات الّتي واجهتها عند وصولي إلى إيطاليا عن الصعوبات الّتي واجهتها «مريّا».. مرضها الّذي يستدعي علاجاً نفسياً معمّقاً، الشركة المقبلة على الإفلاس، مافيا السّوق الّتي تتربص بالشركات، أعداء «مريّا» كلّ هذه المشاكل والمشاغل إضافة إلى تفكيري في العائلة وصعوباتها، «فاطمة» الّتي هجرتها دون سابق إنذار، نفسي الجاهلة بكلّ ما يحيط من حولها.. وإذا فصّلت القول في كلّ هذه الحكايات لبقينا إلى آخر الزمن نتحدّث ونتسامر، المهمّ في كلّ هذا أنّ «ماريا» كانت راغبة في الشفاء، حدّثتني ذات لحظة صفاء أنّها اختبرت رجولة العرب وصدقهم وإخلاصهم وأنّهم متى عزموا على أمر نجحوا فيه، لمست ذلك أثناء إقامتها في جربة.

كما قال طارق بن زياد: العدوّ أمامكم والبحر وراءكم، أين المفرّ؟ هذه المقولة تنطبق عليّ تماماً، اتّخذت هذا الأمر ضرباً من التحدّي بعد الفشل المتتالي. قرّرت أن أخوض المعركة بكلّ ما أوتيت من شهامة عربية، فكان لي بعد سنوات بنتان وزوجة جميلة وشركة سياحيّة عملاقة؟ نجحت في المعركة ولكنّي لم أنجح في الحرب لأنّ ما نجحت فيه لم يكن هدفي،

هدفي أن أصحّح تاريخ بلادي، أن أخوض معارك أخرى تحقّق الإنسانية وتجعل النّاس سواسية، أن أسهم بشكل فعّال في تغيير وضع بلادي؟ وأن أكون فاعلا في التّاريخ؟

أيذكر التّاريخ يوماً أنّي كسبت أموالاً وزوجة وأبناء؟ التّاريخ لا يذكر هؤلاء.. على سبيل الذّكر «بورقيبة» لم يترك أبناء كثراً ولا أموالاً وعلى الرغم من ذلك يحضر في ذاكرة كلّ التونسيين شأنه شأن «هواري بومدين» و«عبد الناصر» وكلّ بناة الدول العربية الحديثة هكذا أردت أن أكون، ولكنّي لم أكن يوما ولن أكون لاسيّما بعد بداية المصالحة بيني وبين الرئيس الفارّ.

وعن أيّ مصالحة أتحدّث الآن؟ جميع خطواتي الّتي خطوتها في اتّجاه النّجاح باءت بالفشل، أعود إلى الوطن ذليلا كما خرجت منه.

عليّ أن أنسحب من هذا الكون انسحاباً ليس بعده رجعة، لم يبق أمامي سوى الانتحار شنقاً حتّى الموت.. كيف لي أنْ أعود إلى الوطن وألتقي بأصدقاء الأمس؟ أغلبهم من المناضلين الملتزمين بقضايا الوطن لم يحد منهم عن مساره سواي، و«فاطمة» تلك المرأة الروضة كيف ستتقبّل عودتي؟ انقطعت أخبارها منذ هجرت الوطن، ولا أعلم أتزوّجت بعدي أم حافظت على العهدِ.

*****

نظر نحو رفيقه وقال: قد بان الصبح وأنا لا زلت كما ترى في مفترق الطرق لم أعرف قبلتي أأصوّب يميناً أم شمالاً، شرقاً أم غرباً .... ضاعت الاتّجاهات الستّ.

أجابه الرّفيق: كفاك وهما، يبدو أنّك كثير التسرّع والشكوى، كلّنا في البلدان العربية نعيش المصير نفسه، أوَ تظنّ أنّ هجرتي إلى إيطاليا وبطالتي المستمرّة فيها هو مجرّد تسلية، لقد عانيت مرارة الألم والبؤس في وطني ومع ذلك تجاوزت الماضي وانقطعت عن الشكوى والتذمّر لكونهما من شيم الضعفاء، لقد عشتَ مغامرة حياة كبقية الشباب العربي وفقت في بعضها وفشلت في بعضها الآخر.. وذلك مصير الإنسان.. وما شدّني إلى حكايتك هو أنّك لم تقرّر يوماً مصير فشلك أو نجاحك، كلّ منجزاتك دون إرادة منك، وذاك مصيرنا نحن العرب لا نحسن القيادة ولا نقدر على قيادة حياتنا نترك مصيرنا للمجهول وبعد ذلك نتعلّل بالقدر.. ولعمري فإنّ ذلك لمن أشدّ عيوبنا.

ولست من القوميين ولن أكون كذلك، ولا يسارياً ولا يمينياً ولا بعثياً ولا... ولكن أنا عربي كما يقول «درويش» ولن أكون إلاّ عربيا، عاصمتي القدس وهويّتي مكّة وحدودي دجلة والفرات والنيل ومضيق جبل طارق، لا معنى لوطن عربي ما دمت تنتظر بطاقة عبور ولا معنى لهويّة ما دمت لا تفهم لغة أخيك في المشرق أو المغرب أو الخليج. تلك همومي أيّها التونسيّ الأنيس.

نتفق في ذلك مع اختلاف في التفاصيل فلا يُبني الوطن

العربي الكبير إلاّ بعد بناء الأوطان الضيّقة.

نعم ذلك ما أردت الإشارة إليه.. فأنت تريد إصلاح الوطن ولم تستطع أن تصلح من ذاتك.. بناء الإنسان أولى من بناء الأوطان.. فإذا بنيت إنساناً فلا شكّ أنت بنيت وطناً، لذلك قلت لك لا معنى لاختلاف المذاهب ما دمنا لا نتّفق على معنى الوطن.. لقد كتب «عبد الناصر» كتاب «فلسفة الثورة» وفيه دعا إلى وحدة الوطن العربي على أساس اللغة والدين والهوية.. فهل لسكّان الوطن العربي اليوم لغة مشتركة ودين واحد؟ ولنفترض أنّ العرب يشتركون في ذلك، هل ترى أنّ العرب يُمكن أن يجتمعوا على أساس الدين واللغة في عصرنا.. لا معنى لوحدة العرب دون أن تتوحّد المصالح المشتركة، فغريزة حبّ البقاء واستمرار الحياة هي الدافع الحقيقي لعودة العرب إلى الصدارة من جديد.. تراهم مجتمعون وقلوبهم شتّى.

- ١٣ -

وجع الغربة أشدّ وطأة على الإنسان من كلّ الأوجاع الأخرى، أن يكون فقيراً ضعيفاً مسكيناً في بلده بين أحبابه وأهله وعشيرته أهون عليه من غربة تمنعه من الاحتكاك بأوجاع أهله، وملامستهم ومداعبتهم، الحزن لأحزانهم والفرح لمسرّاتهم يذهب كدر الدنيا، يُخفّف من قسوة الحياة، يُشعر الإنسان بالطمأنينة، يجعل الأحزان والمآسي والآلام أفراحاً، كلّ ما اكتسبه في الغربة لا قيمة له إزاء جلسة مع الأحباب أو جولة في الأحياء العتيقة العبقة برائحة الوطن.

اشتاق «المهديّ» إلى عائلته وأهله وأحبابه، طالت به الغربة ولعلّها تزداد طولاً بعد الثورة أو الانتفاضة، كيف السبيل إلى حلّ الآن؟ كلّ الأوضاع تبدلت وبدأت العاصفة تشتدّ بعد أن كادت تهدأ.. الآن بالذّات وجب عليه أن يفكّر بعمق.. كان يحمل همّ عائلته الآن بات يفكّر في مصير دولته، كلّ النقد الّذي وجّهه إلى سادتها طيلة عشرين سنة لم يكن وجيها مقارنة بالاستقرار الّذي تعيشه «تونس».. هو لا ينكر هذا وما أنكر يوما.. لعلّ صعوبات الحياة والظروف الاجتماعية القاسية هي الّتي أجبرته على ذلك، وكلّ ذلك لم

يعد مهمّا الآن، الأشخاص فانون والوطن باقٍ لا محالة، بيد أنّ الوطن الآن يتّجه نحو المجهول، لخبطة سياسية كبرى وصراع بين سياسات معلومة وأخرى مجهولة، من سيتولى الحكم؟ والدستور ماذا يقول؟ وهل يمكن أن تتغيّر الأحكام بعد صعود شخص جديد أو حزب جديد للحكم؟

كلّها أسئلة عميقة تبادرت إلى ذهنه وأخرى تبخّرت في ظلّ الازدحام.. قرّر أن يحدّ من الغضب الّذي كان يعتريه بعد كلّ منعرج حياة يقع فيه، نبهه رفيقه الجزائري إلى ذلك ولعلّ التجارب المتعدّدة الّتي خاضها خلقت منه رجلاً آخر أو لعلّ مصير وطنه المجهول هو الّذي أجبره على الهدوء الحيني.

اتّخذ لنفسه منزلاً منعزلاً حتّى يُحسن التفكير ويقرّر القرارات الصّائبة بعد أن تكرّرت أخطاؤه في الماضي، ركّز اهتمامه على الوطن وقرّر أن يتتبّع كلّ شاردةٍ وواردة.. المؤمن الحقّ لا يُلدغ من الجحر مرّتين.. هذا المثل ينطبق تماماً على وضعه الآن، وعليه أن يتجاوز أخطاء الماضي ويبحث عن الثغرات الّتي يمكن أن تجعل هذا الحدث في صالحه، وعليه أيضا أن يُفكّك لغز هذا الحدث.

منذ الوهلة الأولى للثورة أُصيب بالرّعب والخوف، وبعد أن استرجع مع رفيقه الجزائري ذكريات الماضي، وبعد أن تأمّل في طبيعة الحكم في «تونس» طيلة ربع قرن أدرك أكثر من أيّ وقت مضى أنّ هناك لغزاً وراء ذلك.. لا يمكن للتونسيين وهم يعيشون الهدوء والاستقرار أن يقلبوا حياتهم إلى فوضى.

أمران رفعا من درجة الحيرة بداخله: الأوّل أنّ الرئيس أعلن عن تشغيل أكثر من ثلاثمائة عاطل عن العمل، فإن كانت ثورة البحث عن كرامة الشّغل فلا بدّ أن تهدأ بعد هذا القرار، والجميع يعلم أنّ الرئيس بضغط منه على الشركات الخاصّة والمؤسّسات الحرّة إضافة إلى مساهمة الدولة بإمكانه أن يفي بوعده وهو في حاجة إلى ذلك لكونه يرغب في استرداد ثقة الشعب فيه، وقد استبعد مقولة الانتقام بعد تهدئة الوضع لا لشيء إلاّ لأنّ الرئيس مُدرِك أنّ أي محاولة منه للانقلاب يؤدي حتماً إلى مزيد من تردّي الأوضاع وربما مطالبة الشعب بإعدامه، وهذا ما تحقّق في العديد من الثورات المشابهة.

الثاني يبدو أكثر غموضاً، فالجميع يعلم ما قامت به الدّولة من تجفيف لعقول الشّباب وأبعدتهم إلى أقصى ما يكون عن فكرة الاهتمام بالسياسة، فأصبحت بذلك ممارسة السياسية لدى الشباب ضرباً من المُلحة فقد وُجهت عقولهم وجهات أخرى.. ولهذا فإنّ مطالبة الشّباب بالحرّية والكرامة بالمعنى السياسي يبدو أمراً غريباً مع العلم أنّ الشباب التونسي في تلك الفترة يتمتّع بكامل حريّته في اللّباس والسهر والتجوّل، لذلك تبادر إلى ذهنه سؤال لم يجد له الأجوبة المُقنعة: مَنْ وراء هذه الشعارات؟!

بعد هذين السؤالين بدأ يُفكّك شيئاً فشيئاً طبيعة الثورة التونسية على أنّ الإعلام كان تائها في مطبّات عمياء لأنّ الصحف اليوميّة والبرامج التلفزيونية اتّجهت نحو محاورة المعارضة السياسيّة وهي معارضة صوريّة لم يكن لها تأثير

بالغ في مسار الثورة وأهملت محاورة الثائر الفعلي على نظام الحكم.. بل اكتفت باستدعاء أشباه مناضلين أكل على نضالهم الدهر وشرب.

والسؤال الأوّل انتهى به إلى سؤال أعمق: هل هناك فعلاً من يسعى إلى طمس فكرة البحث عن عمق الثورة الحقيقيّة؟ بمعنى أدق: أثار التونسيون فعلاً على نظام حكم لم يحقّق لهم الحياة الكريمة؟ أم أنّ ثورتهم هي باب من الفوضى العامّة والثرثرة في «قرطاج» المنطقة الضاربة في عمق التّاريخ؟

بات مسكونا بهاجس السؤال، قام بدور المحقّق، حبل يربط بين حائطي غرفته يُلصق به كلّ ما يراه مهمّا يُمكن أن يساعده على فكّ هذا اللّغز، صُوَرٌ لسياسيين من الحكم أو من المعارضة، أخبار من الصحف العالميّة، بعض المخطوطات الّتي دوّنها بنفسه، العديد من المقالات... كلّها معلّقة على الحبل تنتظر من يقلّب بواطنها حتّى يكشف عن بعض الأسرار.

وهذه الأسئلة لم تكن بمعزل عن الأحداث الدائرة في الوطن: هروب مدبّر للمساجين بعد فتح السّجون وحرقها، حرق المقرّات الأمنية، حرق العديد من الوثائق الإداريّة المهمّة في البلديات والمعتمديات، السطو على المحلاّت التّجارية الكبرى... من مختلف تلك الأحداث دوّن في مخيّلته حدثين: هروب المساجين، وحرق الوثائق الإدارية المهمّة وعليهما كان مشغله.

لقد ازدحمت الأحداث في الذهن وفي الواقع، ازدحمت في

الذهن باحثة عن الأسباب العميقة لهذه الثورة، عن الدوافع المؤديّة إلى غضب التونسيين، عن الحوافز الكامنة وراء خروجهم إلى الشّارع عصياناً وتمرّداً، وأسئلة أعمق تجوب في ذهنه من أبدية الماضي إلى أزلية المستقبل، أسئلة تلج إلى العمق باحثة عن الخيوط الرقيقة المتشابكة، عن المصالح الداعمة للتمرّد، عن الشبكات الجديدة الراغبة في حدث التغيير، عن القوى الجديدة الّتي يُمكن أن تتصدّر المشهد، عن البديل الفعلي القادر على إخراج الوطن من عنق الرداءة والتصحّر والفقر والتهميش.. هل يمكن القطيعة مع الفكر السياسي الّذي حكم «تونس» منذ ما ينيف عن نصف قرن؟ وهل ثمّة بديل؟ وإذا سلّمنا بوجوده هل هو الفارس القادر على الخروج بالوطن إلى برّ الأمان.

ومن جهة أخرى تزدحم الأحداث في الواقع:

في الشارع الشعب على غير منهج في حركة نهب وسلب لا مثيل لها.. مشهد يُذكّر بأسود الزُبد سنة ٣٦٤هـ في العراق، أغلب الشّعب يسير على ذلك المنهج، أمر يحتار في تفكيكه وتفسيره علماء الاجتماع وعلماء النّفس، فمن جهة تقام لجان أحياء من المتطوعين لحماية المتساكنين من حركات النهب والسلب ومن جهة أخرى تكثر الجريمة والاختطاف والسرقات، وانخرط الإعلام في ذلك، فحاد عن مهمّته الأساسية وهي فكّ شفرات الثورة ومساعدة الشعب وتوعيته من أجل إنقاذ الوطن إلى تقديم أخبار زائفة عن أحداث لا تمتّ إلى الواقع

بصلة. وهو ما أثّر في الوعي الجمعي لينخرط عموم الشّعب في سرد روايات وأحداث عن الاختطاف والنهب والسّرقة أعجب ممّا تقرؤها في كتاب «ألف ليلة وليلة».

وفي قصريْ الحكومة و «قرطاج» أعلنت حروب لا يمكن أن يستوعبها عقل.. حكومات تُنصّب وأخرى تعزل، حكومات تسعى إلى الهيمنة والسيطرة وأخرى تفشل.. مدّ وجزر وغموض يكتنف السّاحة السياسية، ولا أحد بإمكانه التنبؤ بمستقبل الدّهر.

وشيئاً فشيئاً بدأ المشهد في التشكّل، وأخذ المعارضون في التوافد على أرض الوطن من اليسار ومن اليمين، بعضهم من المعارضين الحقيقيين وبعضهم من المزيّفين، بعضهم من المعارضين الأثرياء وبعضهم الآخر من المعارضين الفقراء، بعضهم من أصحاب الشهادات والعلماء وبعضهم من الجهلة الأغبياء.

انقسم المشهد إلى يسار ويمين وبينهما شقّ غير أمين، وبعد أن كان هذا الصراع، في سبعينات القرن العشرين والثمانينات منه، في الجامعات.. تحوّل الآن إلى البلاتوهات.. فهذا يُنصّب نفسه زعيماً والآخر أميراً، وهذا يستلهم شعبيته من دور العادة والآخر من دور العبادة، فلا تفهم من الأحقّ بالوراثة ومن الأجدر بالخلافة !!

وبعد أن امتلأ الوطن بالوافدين كاد يلفظ أنفاسه ولعلّه

بعد حين سيلفظ بعض أناسه، لأنّ الصراع اشتدّ والعراك احتدّ. فاجتمع الجماعة حول الكراسي وتناسوا ما يُعانيه الوطن من مآس.

*****

في خضمّ هذه الأحداث المتسارعة قرّر «المهديّ» أن يعود إلى الوطن، لم يفكّر في خوض غمار الصّراع من عدمه.. المهمّ أن قرار عودته لم يرتبط بقرار محكمة تسمح له بالعودة وتصرّح ببراءته بل كان على إثر اختيار شخصيّ، فقد كان لاجئاً سياسياً دون ثبوت التهمة عليه.

لقد التحقت أمّه بجوار أبيه وهو يُسارع من أجل إيجاد مصالحة تُمكّنة من رؤية أمّه لتبادل الوصايا قبل أن توافيها المنية، أدرك وصاية أمّه وهي العناية بأخوته وخصوصاً أخته الكبرى، أمّا وصّيته لأبيه فقد تناثرت في مهبّ الريح.. توفيّ أبوه فجأة دون أن يروي عطشه وأن يرفع رأسه، وتوفّيت أمّه وهو في المنفى فلم يستطع أن يسلّمها الرسالة إلى أبيه.

عاد إلى الوطن لكنّه لم يُقرّر الرجوع إليه.. مسافة بعيدة بينه وبين وطنه وهو على ترابه. لم يُحسّ بالغربة الّتي أحسّ بها الآن. على الاستقبال الجماهيري الغفير الّذي حُضي به شأنه شأن أغلب المعارضين الّذين كانوا ينعمون في خيرات شمال الكرة الأرضية فإنّه لم يذق متعة الإحساس بتراب الوطن.

وعلى اللّهفة الّتي كانت تتدفّق بداخله أصيب بالخيبة لحظة الوصول.. بدأ في اشتمام روائح كريهة يلقفها الرّيح من هنا وهناك، و أولى تلك الروائح هو التضخيم المشطّ من عودة بعض الوجوه المعارضة، وجوه أُلّهت في عقول جماهيرها على الرغم من أنّ بعضها كانت ترفل في النعيم وبعضها الآخر تتواصل مع رمز السّلطة خلسة.

رفض البقاء في العاصمة. هرب إلى منزل عائلته. يتعلّل في الظاهر بزيارة إخوته ولكن في الحقيقة يهرب من المواجهة: من مواجهة «فاطمة»، من مواجهة رفقائه السياسيين، من مواجهة تراب الوطن.

مكث بين أطراف العائلة، لم يتغيّر شيء يستحقّ الذكر في مدينته مذ فارقها من عشرين سنة ولا في منزل أبيه، صلُح حال بعض إخوته جزئياً: فقد عادت أخته إلى عملها إبّان الثورة، في حين تردت أحوال إخوته الصغار نتيجة طول البطالة بعد التخرّج، فسوق الشغل لم يعد يوظف أصحاب الشهادات العليا بعد أن كان صاحب الشهادة العلمية في بداية التسعينات موظّف دولة مرموق، عليه الآن أن يفكّ بطالتهم وإن كان الحال لا يسمح لأنّ الفوضى عارمة.. ومع ذلك قام بما يمكن القيام به تجاه إخوته.

الأمر الطّارئ أنّ « حمّة» نادل المقهى قد استشهد في أحداث الثورة وترك طفلين في سنّ المراهقة وزوجة تخطو

خطواتها الأولى في سنّ الكهولة، وبعد استشهاده تنكّر لعائلته الجميع: صاحب المقهى وروّادها وأصدقاؤه وحتّى الحكومات المتعاقبة.

بعد أن زار زوجته اكتشف وضعها المادي الرديء.. منزلٌ بغرفتين ومطبخ غير مهيأ تماماً للسّكن وأثاث قديم بال.

سألها عن حالها وأولادها، سألها عن «عبد الودود» و «فوّاز» صديقيه الّذي كان له فضل كبير عليهما قديماً لمّا كانا تلميذين وطالبين.

فقصّت عليه ما أصابها من فقر ومن جوع وحرمان، حدّثته أنّهما وعداها خيراً لمّا زارتهما مستجدية لإنقاذ ابنيها من التهميش الّذي عانى منه أبوهما، لكنّهما تنكّرا لها، أخبرت أنّ «عبد الودود» قدّم لها بعض الإعانات الضئيلة زمن الانتخابات لكنّها إعانات لا تسدّ رمق جائع.. ثمّ اختفى تماماً فيما بعد شأنه شأن «فوّاز» الّذي لم يكلّف نفسه عناء الاطّلاع على أوضاع طفليها.

في الحقيقة لم يتغيّر وضع المدينة الصّغيرة منذ غادرها من حيث الامتداد العمراني، أمّا من جوانب أخرى فإنّه لم يتمكّن بعد من سبر أغوار طريقة التفكير الجديدة للطبقات الاجتماعية المفقّرة، الفقر ينتشر هنا وهناك على الرغم من انتشار الحقول الزراعية المترامية، وانتشار مصانع الرخام،

المقاهي المنتشرة تمتلئ بالشباب المعطّل عن العمل صباحاً ومساء ويوم الأحد.

كلّ الحكومات تواصل تهميش هذه المناطق توظّفها خزّاناً انتخابياً.. زمن الانتخابات يتوافد المسؤولون من كلّ حدب وصوب، يعانقون الفقراء، يدوّنون مآسيهم، يصوّرون فقرهم ثمّ بعد ذلك يُغادرون دون رجعة، ولا يبقى لهؤلاء المهمّشين سوى ذكريات الصور فهذا يتباهى بالتقاط صور مع هذا السياسي الشهيروالآخر يتباهى بصور مع ذاك الإعلامي اللّامع وعادة ما ينتهي بهما الأمر إلى الصراع ثمّ الشجار فالعراك والتقاتل، فهذا يمجّد ويمدح والآخر يسبّ ويلعن، والسياسي في منصبه لا يحرّك ساكنا بعد أن فازبالكرسيّ.

انقسمت البلاد نصفين: شقّ لشيخ وشقّ لآخر، وكأنّنا عدنا إلى قبائل العرب قديماً، وكيف تنقسم البلاد نصفين ولها دين واحد ولغة واحدة وهويّة واحدة، ومن أبرز ملامح هذا الانقسام «فوّاز» و «عبد الودود»، كانا صديقين لا يفترقان على الرغم من الاختلاف الجوهري في نمط تفكيرهما، وحتّى في الجامعة لم ألمح اهتمامهما بالسياسة اهتماماً بالغاً، طيلة أربع سنوات لا يفارقان الكتاب، وبعد الحصول على الأستاذية تغيّرت الاتّجاهات، «عبد الودود» في السجن و«فوّاز» في أعلى المناصب، أمّا بعد الثورة فقد تغيّر المشهد، خرج «عبد الودود» من السجن وهو الآن على أعلى وزارة

وأهمّها في البلاد، أمّا «فوّاز» فقد أخذ مأخذ زميله وبات قابعاً في السجن، وما حدث في البلاد انعكس على مدينتي الصغيرة.. إذ أصبح السّجين صاحب القرار وبات صاحب القرار في السّجن.. هي معادلة يصعب فكّها ويندر أيضا تخيّلها.

في الماضي كان كثير التذمّر من سُكُون هذه المدينة وخوفها، كان أصحاب المصانع يسيطرون على كلّ شاردة وواردة، يستغلّون العمّال أيّما استغلال، واليوم تحوّل الخوف والجبن إلى ضرب من الغُبن أو لعلّه ضرب من الموالاة العمياء لهذا الحزب أو ذاك، لا أحد فكّر في مصير المدينة وسكّانها، أغلب النّاس يتصارعون من أجل الحصول على كسرة خبز من هذا المسؤول أو ذاك، ولم يجتمعوا على رأي يخلّص المدينة من براثن الفقر والجوع والحرمان.. الذكيّ النبيه منهم من يحصل على إعانة أو على دفتر علاج مجانيّ والغبيّ منهم تعفّف وتعالى.

هكذا سارت البلاد. كان من المفروض أن يُعاد ترتيب البيت من جديد.. أن تزال منه كلّ الطفيليات ويتمّ حرقها حتّى تزدهر فيه الحياة، قبل عودته من إيطاليا اعتقد أنّ هذه الثورة هي فعل طهارة تطهّر الوطن من الدنس، لذلك تردّد في الرجوع، أمّا ما شاهده اليوم فلا يكون سوى فوضى عارمة، فعوض أن يكون فعل الحرق قاتلا للمدنّسين فإنّه قد زادهم خصبا.

فأيّ معنى لإعادة التأسيس من جديد؟ وعلى أيّ أساس يكون هذا التأسيس؟ إقامة مجلس للتأسيس هو ضرب من

المغالطة؟ والمغالطة الأعظم أن يشترك في تأسيس الوطن الجاهل قبل المثقف والأميّ قبل المتعلّم، التأسيس يكون مع بداية نشأة الدّولة أمّا والقطاريسير فلا معنى لإعادة التأسيس إنّه ضرب من مضيعة الوقت.

سعى «المهديّ» إلى أن يكون هادئاً. ها هو يستعيد جنونه بعد اكتشافه لحال وطنه والخيانات العظمى المرتكبة في حقّه، وها هو يستعيد جبروته بعد تواصل تهميش مدينته، كان يعتقد في أنّه من الخونة الفاقدين للأمانة والمتنكرين للحقّ وللفضيلة، غير أنّ هذا الإحساس سرعان ما يتبدّد بعد اكتشاف الخيانات العظمى، فالنضال يُباع ويُشترى في الأسواق علناً.. إذ لم يعد وجها من وجوه الفضيلة والدفاع عن العدالة والحق بل أضحى وسيلة للتكسّب، قديماً كان الشّعراء يتكسّبون بالمديح والتملّق أمّا اليوم فإنّهم يتكسّبون بادّعاء النضال، لكونه البضاعة الأكثر رواجاً والأكثر كسباً.

يرى النّاس يتهافتون على أقسام الشرطة والمحاكم من أجل الحصول على بطاقة تدين طالبها، قديماً تُمنع الوظيفة عمّن دُنست بطاقته أمّا اليوم فتمنح له الوظيفة مصحوبة بمنحة تعادل سنوات النضال.. كان يعتقد أنّ النضال عطاء للوطن وتضحية من أجله فإذا به اليوم قوت يسترزق به المناضل حتّى أصبح النضال في وطني من المفاهيم المبتذلة.

ومن الغرائب الأشدّ وقعا في نفسيته أن أصبحت البذاءة فنّاً، والتحيّل ذكاء، والتهريب تجارة. في هذا الوطن لم تعد للمثقف مكانة، ولا للعالم منزلة مادية ولا معنوية، ولا لصاحب الشهادة الجامعيّة قيمة، انتهى عهد الثقافة والعلم وارتفع أهل السياسة والمال. فكتب أحدهم:

« رأيت الأديب في أمّته أهون من قعيس على عمّته»

وأنت أشدّ النّاس معرفة أنّ قعيساً عند العرب قديماً يُضرب به المثل للذلّ والمهانة، وهو اليوم يتشكّل في صورة العالم والأديب.

الوطن كخلية نحل، تشابه عظيم بين مختلف شرائح المجتمع، أعاد «المهدي» السؤال مراراً: ألهذا الحدّ تغيّرسكّان «قرطاج»؟ أم تراه هو الّذي تغيّرولم يُدرك بعد مدى تغيّره؟ كان غريبا عن وطنه، ولم يكن كذلك بين النّاس الذين يعاشرهم، واليوم أصبح غريباً عن النّاس في وطنه.. مسألة رياضية حاول أن يفكّ ألغازها، وأن يصل من خلالها إلى نتيجة تقنع عقله المتردّد بين الشمال والجنوب، الشرق والغرب.

التربة نفسها ولكنّ الإنسان الذّي خُلق منها شديد التباين والتناقض.. كلّ إنسان ينظر إلى الوطن من منظور نفسه، بل ينظر إلى الثورة من منظور نفسه: أخته، «حمّة» النادل، «فوّاز» ، «عبد الودود»، «فاطمة»...

- ١٤ -

زار أخته في بيتها.. الحياة كما هي مذ تركها، وبعد غيابه أحداث مُتعدّدة ومُختلفة مرّت، قالت تحدّثه - والشهيق يتعالى والعبرات تتحوّل بين الفينة والأخرى دموعاً تسيل سيلان النّهر - : زهاء عشرين سنة من القهر مرّت على حياتي وأنا شبه أرملة أو مطلّقة لأنّ زوجي قابع في السجن، مررت مباشرة من مرحلة الشباب اليافع إلى سنّ اليأس من الإنجاب وما بينهما طرد تعسّفي من العمل.

- قل لي بربّ العزّة يا أخي هل رأيتني يوما مناضلة سياسية؟ وهل يمكن أن تصدّق أنّي أشكّل خطراً على النظام أو الدولة؟ أستترفقط بستار على رأسي احتراماً لوالدي ولزوجي ولعراقة عائلتنا، وأنا أضع الخمار منذ كنت مراهقة.

ذات يوم ربيعي هممت بالخروج إلى المعهد، كان ذلك في منتصف ثمانينات القرن العشرين، نادتني أمّي وحدّثتني عن عاداتنا وتقاليدنا وأنّه يجب عليّ أن أكون كبنات جيلي من الحشمة والاحترام إذ من العيب أن تبرز مفاتني أمام إخوتي المراهقين وأمام أبي وبقية شبّان الحيّ والمعهد، ومن تلك اللحظة وأنا على حالي هذه.

لم أستطع مخالفة مقولات أمّي وطرق تربيتها، ولم أشأ

إغضاب أبي وهو في قبره، ومع ذلك شُرّدنا وأُنتهكنا ظلما.. فصلوني عن العمل وأدخلوا زوجي السجن، ولا أنكر أنّ لزوجي بعض الميولات السياسية والعقدية لكنّه لم يكن يوماً منتمياً إلى أيّ حزب سياسي.

إنّها وشاية من أحد زملائه الحقودين الفاشلين، كان زوجي متفانياً في عمله، مخلصا له، فقرّرت إدارة التعليم تعيينه مديرا للمدرسة.. بيد أنّ زميله المتكاسل طمع في هذا المنصب ولم يحصل عليه، وما كان منه إلاّ أن وشى به إلى قسم الشرطة، وبينما هو يؤدّي صلاة العشاء في البيت إذ داهمتنا فرقة أمنية - قيّدوه وسحبوه وعاثوا في المنزل فساداً ثمّ مُزّقت جميع كتبه وأُحرقت.

كان ذلك الحدث بمثابة الانقلاب الحاسم في حياتنا، أخذوا زوجي ولا أعلم أين حبسوه؟ ولِمَ أهانوه؟ ولِمَ منعوني من زيارته لأيّام وأسابيع؟

وبعد أسبوع سحبوني أنا أيضاً، وعلى خلاف تصرّفاتهم مع زوجي كانوا معي أكثر لطفاً وليناً، طلبوا منّي في البداية أن أنزع الحجاب، ولمّا رفضت بدأ التهديد العلني.. فكانت المقايضة عودة زوجي مقابل التنازل فازددت تمسّكا برأيي فمنعوني من زيارته تماما، بل أنّهم سمحوا لي في فترة إيقافه بمقابلته مرّة واحدة طلبوا منه أن يقنعني بالعدول عن رأيي، ولمّا اكتشفوا نصيحته بالتشبث بموقفي وبقائي عن العهد منعوني من زيارته ولا أعلم أين أخذوه.

ولم تقف التهديدات عند ذلك الحدّ.. بل تواصلت فأوقفوني عن العمل لثلاثة أشهر، ثمّ كان فصلي النهائي بتهمة الانتماء، والمشكلة لم يحدّدوا طبيعة الانتماء، هل الانتماء إلى ربّ العزّة تهمة؟

وليس ذلك فحسب كانت المضايقات في الشّارع والمنع من العمل، حاولت أن أدرّس أطفال الحيّ في المنزل فمنعوهم عنّي بل هدّدوني بالسجن نتيجة القيام بأنشطة اقتصادية دون إذن، حاولت أن أشتغل في الحقول الفلاحيّة ومُنعت، طلبت من صاحب مصنع الرّخام الذي كان يشتغل فيه والدنا فهدّدوه على الرّغم من تعاطفه معي، كما أخّروا عمداً الحوالات البريدية الّتي كنت ترسلها لنا فتصلنا بعد أشهر عديدة يتلوها استجواب عميق: من أين تأتيكم الأموال وممّن؟ ومتى أرسلها؟ وأحيانا يتعمّدون إذلالنا فيحجزون ما ترسله لنا بتهمة وصول الأموال من مصادر مجهولة.

توقّفت قليلا لتستردّ أنفاسها.. مسحت دموعها اعتدلت في الجلسة ثمّ أعادت ترتيب لباسها.. ظهر شعرها المبيضّ بعد أن كان فاحم السّواد وتجاعيد على وجهها المنكمش.. أخذت فنجان «الشّاي الأحمر» بدون سكّر بين يديها، تنهدّت ملء حنجرتها بعد أن أخذت رشفات مُتتالية.

عادت إلى السرد، حديثها مسترسل مشوّق يشدّ المتقبّل إليه على ما يُخفيه من مآسي عميقة.. المضايقات المتعدّدة

والطرد التعسّفي من العمل لم يؤثّرا فيها التأثير العميق، تتمثّل مأساتها في وصولها سنّ اليأس دون أن تنجب طفلاً تحدّثه عن نضالات أبيه، عن تمسّكه بموقفه، عن صمودها وعدم استسلامها.. إنّها فخورة بالمحافظة على مبادئها وقيمها وتشبثها بمواقفها دون الرضوخ لتهديدات السّلطة.. وفي هذا لم تكن كبنات جيلها اللواتي استسلمن خوفاً وجبناً.

بعد الثورة استعادت كرامتها بأن رجعت إلى حمل المحفظة من جديد كما كانت في الماضي ولكن الثورة لم تستطع أن تهديها طفلاً طالما حلمت به.. طفلاً يعزّز معنى الأمومة بداخلها. وما الأنثى – كما تعتقد – سوى أُمّ تقف تحت أقدامها الجنّة.

قرّرت أن تقضيّ بقية حياتها في المدرسة تربّي النّاشئة على القيم الفاضلة، كرّست حياتها للتعليم رغبة في استرداد متعة الأمومة، بعد انتهاء الحصص المعدّة للدرس تجتمع مساء بالأطفال لتعلّمهم الأحاديث وحفظ القرآن، نجحت نجاحاً كبيراً في استقطاب الكثير من الأطفال، علّمتهم العديد من القيم والمبادئ وساعدتهم على حفظ الكثير من السّور القرآنية والأحاديث النبويّة حتّى أصبحت حديث القاصي والدّاني.

اتّصل بها الحزب الإسلامي الفائز في الانتخابات شجّعها كثيرا ومدّها بالعديد من المعدّات الحديثة كما قدّم لها العديد من المساعدات للأطفال الفقراء.. تنسيق رائع بينهما

باركه سكّان حيّها والأحياء المجاورة للمدرسة الابتدائيّة.

غير أنّه ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه، قد تجري الرياح بما لا تشتهي الأنفس.. عادت من جديد إلى تصلّبها واستبسالها في إنقاذ هؤلاء الأطفال الصّغار من الاستغلال الفاحش، إذ تارة ما يطلب منها الحزب مشاركة هؤلاء الأطفال في بعض الأنشطة السياسية، وتارة أخرى يدعوهم لحضور التظاهرات ثمّ حدث ما لم تكن تنتظره.. فقد صرّح أحد أعضاء هذا الحزب بأنّهم تمكّنوا من تكوين العديد من الأطفال ومساعدتهم مادياً ومعنوياً.

بعد هذا الخبر ثارت ولم تهدأ، عانت كثيراً من ظلم الأحزاب السياسية طيلة زمن طويل وها هي مأساتها تتكرّر.. لم تكن للسياسة معنى في حياتها بل كرهت هذا المصطلح كرهاً شديداً، وزاد كرهها لكونها تمقت مقتاً شديداً استغلال براءة الأطفال، اتركوا الأطفال لطفولتهم لا لتوظيفهم أو إجبارهم على إتّباع مذهب بعينه، انتهت إلى أنّ السياسة اليوم لعنة وكلّ السياسيين في نظرها ملاعين فهُم إنّما يُمارسون السياسة لغاية الهيمنة والسيطرة.

صدمة أخرى تصيبها وصلت إلى حدّ الصراع وتبادل التّهم، فلمّا ردّت على الحزب السياسي بقوّتها المعهودة تعرّضت مرّة أخرى إلى العديد من المضايقات بطريقة أخرى مخالفة لما

كانت تتعرّض له في التسعينات.. كان النظام القديم يحارب الإنسان جسدياً فيمنعه من التحرّك ومن العمل أمّا النظام الجديد فيسمح لك بكلّ ما تريد لأنّ حربه نفسية بامتياز، فقد سحبوا من تحتها البساط.. معلّمة أخرى منافسة لها أضحت تقدّم دروس دعم مجاناً، تساعد التلاميذ ولا سيما الفقراء منهم، تشتري لهم لباس العيد، و الأدوات المدرسية في بداية السنة، تُساعد عائلاتهم، توفّر لهم مساعدات متنوعة في جميع المناسبات.

ودون أن يحاربوها بشكل مباشر، دمّروا حياتها من جديد.. لا تعلم لمَ تفرّق عنها جميع التلاميذ، لا مبالاتهم بها، بين عشيّة وضحاها تجد قاعتها فارغة، أصيبت بالصّدمة وبالتوتر فبعد أن أوجدت لنفسها أبناء يعوّضونها حرمان العنوسة ها هم ينسحبون الواحد تلو الآخر كأنّهم عاقين لأمّهم بعد أن سهرت على تربيتهم.

لم تكن مأساتها ناتجة عن سرقة فكرتها بل مأساتها الأعمق أنّها أصبحت أمّا بلا أبناء.. قديماً حُرمت من الأمومة قبل أن تصبح أمًّا، أمّا اليوم تُحرم من الأمومة بعد أن أصبح لديها العديد من الأبناء تسهر على تعليمهم وتربيتهم، غادروها مع سبق الإصرار والترصّد إلى أمّ أخرى، وبعد أن داوت جرحاً تتعمّق الجراح بداخلها، وكلّ الجراح تنزف أوجاعاً لا تندمل البتّة.

ساءت حالتها بل تدهورت نحو الأسوأ وكرهت أطفال العالم، باتت تتلذّذ بتعذيبهم، وصارت امتحاناتها بمثابة محاكمة للانتقام والتشفّي، وأحيانا يتحوّل ذلك التشفّي إلى انفعال لا محدود، وكلّما عاتبها ضميرها على أفعالها تتّجه نحو محاولة الانتحار.. ما منعها من ذلك فعلاً هو كتاب الله المتغلغل في أعماق صدرها وكيانها، هو الّذي حال دون كارثة باتت قاب قوسين أو أدنى من الحدوث.

جميع الأطبّاء النفسيين في مدينتها وفي العاصمة لم يقدروا على امتصاص الألم بداخلها ولا تمكّنوا من التخفيف من وطأة الهيجان الّتي تنتابها بين الفينة والأخرى.

لم يعد للحياة طعم، حتّى بعد خروج زوجها من السّجن وعودته إلى العمل بجوارها، سعى بكلّ ما أوتي من حبّ لها أن يُخفّف وطأة الإحساس بالألم. اصطحبها إلى مدن مجاورة للسياحة وإلى بلدان أشدّ جمالا، جدّد جميع أثاث البيت، أعاد حفل الزفاف وصَحِبَها لقضاء شهر العسل في أجمل المناطق.. ومع كلّ هذا لم يستطع أن يخفّف من وطأة الألم الّتي حلّت بها.

ظلّت عابسة طوال الوقت لا يعرف الفرح طريقاً إلى قلبها فأدمنت على السّواد بل إلى امرأة ماسوشية تتلذّذ كثيراً بالانتقام من ذاتها وتعذيبها فامتنعت عن الحياة ولبست

الحزن فقرّرت أن يكون نهارها صائما وليلها مدفوناً في الظلام اللّامتناهي.

وعلى الرّغم من الإرهاق البادي عليه من سنين السّجن ظلما لم يستسلم زوجها، صحبها إلى جميع المستشفيات العمومية والمصحّات الخاصّة أملا في شفائها، رافقها إلى جميع عيادات الأطبّاء النفسيين ولا فائدة.. تنازل عن مبادئه الصّارمة واستدعى إليها جميع مشايخ الأرض ليطردوا عنها المسّ الذي أصابها فلا جدوى.

وعلى الرّغم من فشل جميع محاولاته لم ييأس.. كرّر المحاولات وأعادها، طلب النّصيحة من الأصدقاء والأقارب، عاملها بسلوك اللّين والدفء علّها تتغيّر، وبسلوك الحزم علّها تستفيق لكن الأمل يبتعد شيئا فشيئا.

مع قيام الثّورة ظنّا أنّ الحياة ستنير لهما دروب الأمل. بيد أنّ ذلك الأمل تبخّر.. قال زوجها كنت في سجن صغير محاط بأسيجة متماسكة، حلم السّجين فيه قطع الأسلاك طلباً للحريّة أمّا اليوم فنحن في سجن لا حدود له، مترامي الأطراف ومع ذلك نشعر بالاختناق.

- ١٥ -

ظلّت حياة « حمّة» النادل كما هي دون تغيير، منذ مغادرته المعهد وفشله في الدراسة التحق للعمل بمقهى الحيّ على صغر سنّه، كان حلمه بسيطاً وهو الانتقال من مجرّد نادل جامع للكؤوس والفناجين من أمام الزبائن إلى رئيس للعمّال والمسؤول الأوّل عن المبادلات المالية للمقهى، عشر سنوات من العمل تمكّن فيهما من بناء غرفتين ومطبخ صغير على سطح دار أبيه، وعشر سنوات مثيلاتها لجمع تكاليف الزّواج، على أنّ الحفل الذي أقامه كان بسيطا.

كان شديد التأثّر بثقافة «مهدي»، يردّد أقواله وأشعاره ومن بين الأقوال الّتي رسخت في ذهنه: «الحلم ليس في متناول الجميع، أخي كان عليك ألاّ تحلم».. سعى طيلة حياته إلى تغيير وضعه البائس، لعب أوراق «اليانصيب» ثمّ في ما بعد أدمن أوراق «البرومسبور». كان يعشق عشقاً جنونياً جمعية «النادي الأفريقي» يعرف مدربيها ولا عبيها ومسيّريها. وعلى حبّه لهذه الجمعية فقد كانت تحول دون ربحه في البرومسبور لكونه يراهن دائما على فوزها فيضع العلامة «١». فيحدث ما لم يتوقّعه فتنهزم.

حدثت له طرفة ذات مرّة فقد كان الرهان مع الجار«التّرجي

الرياضي» الذي لم يفز عليه «النادي الأفريقي» طيلة عشر سنوات فقرّر أن يضع العلامة «٢» الدّالة على الهزيمة ولكن المفاجأة حدثت وانتصر فريقه، فبقي في المنزلة بين المنزلتين لم يعرف أيحزن لضياع آلاف الدنانير أم يفرح لفكّ فريقه عقدة الهزيمة أمام غريمه التقليدي.

ومع وضعه الماديّ البائس كان طيّب القلب مع عيب بسيط فيه وهو الوشاية إلى عمدة المنطقة.. كثيراً ما نصحه «المهديّ» بضرورة الكفّ عن هذا الصنيع فتكون إجاباته: كلّ ما أخبر به العمدة لا يضرّ أحداً، وإن امتنعت يوما عن إخباره سيُقذف بي خارج المقهى لأصبح عاطلا عن العمل».

كان يعرف جميع سكّان الحيّ والأحياء المجاورة - شيوخهم ونساءهم وأطفالهم وشبابهم...

بُنيت حياته على الرّوتين والعادات والتقاليد: زوج وأب لطفلين، وحياته تخضع لقوانين صارمة، تتكفّل زوجته بتدابير المنزل وقضاء شؤونه في حين يلازم هو العمل في المقهى، وحتّى يتمكّن من إكرام عائلته بعشاء فاخر أو نزهة في بعض الحدائق العمومية يضطرّ إلى أن يشتغل يوم إجازته.. ولمّا ضعف جسده وترهّل كان يصطاد مواقيت المقابلات الرياضيّة لينزل للعمل مساء كي يحصّل بعض الدنانير مكافأة من الحرفاء وروّاد المقهى.

وفي الصيف تخرج زوجته صحبة نساء الحيّ للعمل في الحقول المجاورة ثمّ تقوم فيما بعد بجمع ما أُتلف من محاصيل الفلاّحين الكبرى، مهمّة شاقّة تقوم بها زوجته حتّى

تتمكّن من شراء بعض الأثاث للبيت وبعض الأواني للمطبخ وأغطية صوفية لفصل الشتاء، ولم تتميّز بهذا العمل العسير زوجة «حمّة» النادل فقط بل كلّ نساء الحيّ يتكفّلن بتأثيث منازلهنّ وكسوة أبنائهنّ.. مهمّة الزوج، نظرا لراتبه الضّعيف، تقتصر على توفير لقمة العيش.

الصيف ليس فصلاً للمتعة والاستجمام على ضفاف الشواطئ بل هو فصل الكدّ والعمل والاجتهاد، ونساء تلك المناطق كالنمل تماماً، في فصل الشتاء يقبعن في بيوتهنّ للسهر على تربية أبنائهنّ والاعتناء بهم ومساعدتهم في الدراسة، نجاح الأبناء في دراستهم علامة على نجاح الأسرة في تربيتها.. وفي فصل الصيف يخرجن من جحورهنّ لتبدأ المشقّة، المرأة كالرّجل تماماً لا تقلّ نضالاً وكدّاً وعملاً وجهداً.

تمرّ الحياة كسلى حزينة وحال النادل لا تتغيّر، يئس من لعب الأوراق، حالفه الحظّ مرّة واحدة في البرمسبور، العمود الثالث هو الفائز.. كاد يطير من الفرح، أحسّ بجناحية يحلّقان في سماء الترف، فكّر في شراء هذه المقهى الّتي يشتغل فيها فصاحبها أصبح شيخاً عجوزاً وكلّ أبنائه قد هاجروا إلى العاصمة بعد أن نجحوا في دراستهم وتقلّدوا مناصب مهمّة في الدّولة، هذه المقهى تدرّ على صاحبها ربحا وفيرا.. سيغيّر من ديكورها، سيجلب كلّ شباب الحيّ لمشاهدة المباريات الرياضية عنده، سيجعل المقهى على شاكلة مدرّجات الملعب، سيقيم منافسات داخل المقهى تدرّ أرباحا كثيرة.. لقد أصبح

«صانعاً» محترفاً يدرك تماماً كيفية جلب الزبائن إلى المقهى، والرياضة هي السبيل الوحيد لاستقطاب الشباب المعطّل، يأتي إلى المقهى من أجل مشاهدة المباريات، وما ضرّ لو حوّلنا رهانات المباريات إلى رهانات بين الجماهير في المقهى.

ارتفعت خيالاته إلى ما لا نهاية له.. بصيص من الأمل تسلّل إليه وهو الغارق في اليأس أبداً. حلمه أن يخرج من الفقر المدقع المسطّر له، يرغب في إكرام أبنائه، في تدريسهم في أحسن المعاهد والجامعات، في تعريفهم ببلدهم والمناطق الجميلة فيه.. لم يخرج يوماً في رحلة سياحيّة ترفيهية مع عائلته، كلّ ما يعرفه أزّقة مدينته وأحيائها البائسة، لا يعرف المناطق الصحراويّة ولا الجبلية ولا السّاحلية، كلّ هذه المدن الجميلة يشاهد بعضها عبر شاشة التلفاز.

بعد قرار شراء المقهى قرّر أن يخرج في رحلة ترفيهية تمتدّ من بنزرت إلى تطاوين، يجوب كلّ المدن بلا استثناء ويعرف خصائص كلّ مدينة وجمالها المعماري والطبيعي.

حلم جميل راوده بعد أن ربح، لكن «مهديّ» أخبره ذات جلسة «أنّ الحلم ليس في متناول الجميع» ، « كان عليه ألاّ يحلم» . فالورقة الرّابحة كان نصيبها ألف دينار، أُصيب بالخيبة، تمزّقت كلّ أحلامه وتناثرت تناثر الحَبّ، حُلم شراء المقهى تبخّر في سماء لا يجعل البخار غيثاً، وحُلم تعليم أبنائه سقط في مستنقع من الماء البارد، وحُلم التنزّه اندثر إلى حيث اللاّسعادة.

كان لعب ورق البرومسبور هوايته المفضّلة، بعد ذلك قرّر

قراراً لا رجعة فيه أن لا يعود للّعب مرّة أخرى، غيَّر هوايته المفضّلة، أُغرم بتربية الأكباش، نظراً لدخله المحدود يشتري خروفاً بثمن زهيد يسهر على تربيته والاعتناء به ممّا تجمع زوجته من الحقول صيفاً ثمّ يبيعه بثمن أعلى، تطوّر هذا الغرام شيئاً فشيئاً، نصحه رواد المقهى أن يشارك في مسابقة مصارعة الأكباش فقد اكتسب خبرة كافية في اختيار الفصائل الأقوى القادرة على المواجهة والانتصار، كما اكتسب خبرة في التربية وفي طرق تقوية الكبش.

في المسابقة المحليّة انتصر كبشه في كلّ المنافسات بالضربة القاضية، سَعِد بذلك أيّما سعادة، اعتقد أنّ حياته ستزهر هذه المرّة لا سيّما بعد اكتسابه شهرة واسعة في مدينته وفي المدن المجاورة، لم يعد أحد يناديه باسمه، جميع روّاد المقهى وشباب الحيّ ينادونه «مالديني» وهو الاسم الّذي اختاره لكبشه لما يتميّز به من قوّة وفنّ في المصارعة، ومن الخطط التكتيكية الّتي علّمها لكبشه أن يكون نطاحه «أرض-أرض».. وهي خطّة تجعل الكبش المنافس يصطدم أنفه أو فمه برأس كبشه وهي الطريقة المثلى للفوز، لذلك يركّز على تعليم خروفه بأن يدفع قرنيه إلى الأمام ويسحب أنفه وفمه إلى الخلف.

ازدادت شهرة «حمّة» النّادل وكبشه، لثلاث سنوات متتالية ينتصر في المنافسات الجهويّة، وبالمال الّذي يكتسبه يشتري الخرفان ويربيهم استعداداً للمنافسات القادمة.

تتالت الإغراءات لشراء كبشه، فالخروف الّذي اشتراه منذ سنوات قليلة بخمسين ديناراً بَلَغ ثمنه خمسة آلاف دينار،

أغراه المبلغ، إنّها تجارة مُربحة أنْ يتضاعف ثمن الكبش مائة مرّة، قرّر أن يبيع الكبش، لكن أصدقاء المقهى منعوه، أسرّوا إليه أنّ هذا الكبش لو شارك في المسابقة الوطنية لتضاعف ثمنه ألف مرّة أو أكثر.

طمع «حمّة»، كثّف من تدريبات الكبش استعداداً للمنافسة الجديدة، فهي منافسة أشدّ وأقوى، وفي اليوم الموعود أقام تسريحة مناسبه لكبشه ثمّ لطّخ رأسه بالحنّاء وكتب على ظهره اسمه الشّهير « مالديني» وثبّت على قرنيه ضفيرتين - بيضاء وحمراء.

في البطحاء الشّاسعة انطلقت المنافسات. بخبرته تمكّن الكبش من الانتصار في المقابلتين الأوليين، وصل إلى الدور النهائي بدون مجهود يذكر، بقيت المنافسة الأخيرة ويعلو الكبش منصّة التتويج، تبدّد خوف «حمّة» بعدما رأى قدرة كبشه على المنافسة، تحوّل الخوف إلى انشراح، اقترب شيئاً فشيئاً من الحلم الّذي طالما راوده، ما فشلت فيه أوراق اليانصيب والبرومسبور قرب الكبش من تحقيقه.

جهّز كبشة، قليل من الماء المخضبّ بزيت الزيتون، وقطعاً من السكّر حتّى يجدّد نشاطه، ثمّ قام بسكب الكثير من الماء على رأسه، ومع بداية المقابلة وضع في أنفه وفي مؤخّرته القليل من «النفّة» الحارّة.

هاج الكبش ولم يهدأ تتالت الضربات نحو منافسه، ضربات مركّزة بقوّة شديدة جعلت المنافس يتراجع في بداية الجولة، غير أنّ الحماس سرعان ما تحوّل إلى هدوء فاسترخاء

غريب.. لم يقدر الكبش على المنافسة فتلقى ضربات قويّة من منافسه فتدفّق الدم من أنفه وفمه.

صاح أحدهم السّكينَ السكّينَ، ذبحوا الكبش وسلخوه، لم يُصدّق «حمّة» ما رأته عيناه، ولم يعهد كبشه بهذا الضعف، وانهالت الدّموع من عينيه وتعالى صوت الندبة من حنجرته، لم يعرف أيرثي نفسه بعد موت رفيق دربه؟ أم يرثي حلمه الّذي تبخّر فجأة؟ أم يرثي أبناءه وأبناء حيّه الّذين جهّزوا استقبالاً يليق ببطلهم؟

غيّر الكبش من مواضيع حكايات الحيّ.. لم يعد من بطل في حكاياتهم سواه - الأطفال والشيوخ وحتّى النّساء، وكلّهم تضامنوا معه، ساعدوا «حمّة» مادياً ومعنوياً، بالسّهر على تقوية عضلاته، بتشجيعه المتواصل، بتقديم النصائح له، لا سيما بعد أن شُهر حيّهم وأصبح محور حديث الأحياء المجاورة ومزارهم للإطّلاع على خاصيّات البطل ومميّزاته.

وبعد هذه الفاجعة كيف يعود إليهم؟ أيعود محمّلاً ببعض اللّحوم هدية منه؟ إنّها لكارثة كُبرى بل فضيحة لا تُستردّ.

*****

على الرغم من إصرار أبناء حيّه وإلحاحهم في دفعه إلى العودة من جديد لممارسة هوايته إلاّ أنّه قرّر الاعتزال، لم تعد هذه الهواية مغرية بعد أن فقَدَ رفيق دربه، كبشه «مالديني»، احتفظ بصورة له معه وعلّقها على باب المقهى ذكرى.

عادت الحياة لتتنكّر له من جديد خصوصاً بعد تفشّي البطالة بين أبناء الحيّ، كساد لم يعرف له مثيل، وحتّى الأرباح القليلة الّتي كان يجنيها من رواد المقهى أثناء المقابلات الرياضية انقطعت إزاء التقشّف المفرط من شباب الحيّ، بؤس الحياة يشتدّ ويشتدّ معه الضيق.

شباب الحيّ ازداد بؤسه، والتململ بادٍ عليهم، أخذ الخوف ينقشع شيئاً فشيئاً من قلوبهم كانوا يتحدّثون همساً أمّا اليوم فمظاهر السخط وعدم الرضا عن نظام الحكم أصبح علنا بعد تنامي البطالة.

تعرّض للكثير من الضغط من قِبَل البوليس للوشاية بالمتمرّدين من أبناء الحيّ ومن زوّار المقهى، حاول في البداية أن يُصرف عنه النظر لكنّ عمله بالمقهى ورّطه أكثر فأكثر، دورية من الأمن تأتيه صباحاً وأخرى تعود إليه ليلاً.

هو بطبعه كان طيّب القلب، غير قادر على أن يُلحق الضرر بأيّ كائن على وجه البسيطة، كان تعامله مع العمدة والبوليس لحماية نفسه لا غير، أمّا اليوم فإنّ الرقابة قد اشتدّت، فكيف له أن يتجنّب غضب البوليس وعدم الوشاية بأبناء حيّه الذين يكنّون له كلّ الحبّ و الاحترام، فهو لم ينس أبداً تضامنهم معه أيّام الشدائد والعوز.

فكّر في التمرّد.. الحياة لم يعد فيها ما يغري بالسعادة والحلم، سينظمّ إلى أبناء حيّه وكلّ الشباب المتمرّد ثورة وعصياناً.. الاجتماعات السرّية انطلقت من المقهى ليلاً لكونه المكان الوحيد الّذي لا يُشكّ فيه، وفيه تُنظّم كلّ التحرّكات

الليلية والنهارية.

التحرّكات الاحتجاجية تجوب كلّ مناطق الجمهورية، التراجع غير ممكن الآن، لابدّ أن يُسهم في نجاة الوطن من القهر، وطن بات فيه الحلم مستحيلاً، فقد كافح «حمّة» طيلة حياته ولكنّ كفاحه يؤدّي به دائماً إلى الغرق، سيبقى طيلة حياته في مستنقع الفقر والخصاصة وسيتوارث أبناؤه ذلك كما ورث عن أبيه.

تقرّرت الاحتجاجات في الحيّ استجابة لدعوات الضمائر، لدفع الظلم، لنشر العدل والمساواة، لرفع القهر، تولّد حمّاس غريب في صفوف الأهالي كانوا يتكلّمون في الزوايا، لا يثقون في بعضهم البعض ولكن فجأة نزعوا عنهم رداء الخوف وتسلحوا بالشجاعة، في السّاعة العاشرة صباحاً تغلق كلّ منافذ المدينة، سيُعلن العصيان المدني، تحمّس الشباب، وقرّر أن يكسر شوكة ظلم الحكومة، رصاصة في الصدر أهون عليه من البطالة والفقر والحرمان، بل أهون عليه من القهر والظلم.

في كلّ مفترقات الطرق أُشعلت العجلات المطّاطية وتَجَمَّع النّاس متسلحين بالعزيمة والإرادة، أدواتهم في الحرب عصيّ من الخشب وكثير من الشجاعة، تحوّل الخنوع الّذي امتدّ طيلة ربع قرن، فجأة، إلى شجاعة، كما تحوّل اليأس الضارب أطنابه في قلب كلّ المواطنين إلى حلم يُراودهم ويُجنّح بهم نحو خزائن من الغنائم.

كلّ المتجمّعين يسعون إلى طرد هرم السّلطة وأتباعه لأنّهم

على يقين، لا يمكن الشكّ فيه، أنّهم استحوذوا على كلّ ثروات البلاد.. والآن حانت السّاعة لافتكاك تلك الثروة وتوزيعها توزيعاً عادلاً بين مختلف أفراد الشّعب، فانطلقت العمليات الحسابية تتبعها إشاعات «من إذاعة قالوا».. فتتالت النقاشات: افتكاك الثروة وتقاسمها يوفّر لكلّ فرد من أفراد الشّعب شهرية بمائتي دينار، يضيف الآخر قيل ثلاث مائة دينار، وثالث يقول إنّ له ثقة في مصدره مؤكّدا أنّ له اطّلاعا على ضخامة الأموال الّتي بحوزة الفئة الحاكمة، وقد أثبت له بعملية حسابية بسيطة أنّ نصيب كلّ فرد لا يقلّ عن خمسمائة دينار لو وُزّع ما أُستخرج من باطن الأرض من كنوز فقط، أمّا ما فوق الأرض فإنّه يجعل البلاد أكثر تطوّراً من «دُبي».

وكلّما اشتدّ النقاش حول مقدار الثروة اشتدّ الحزم رغبة في قلب نظام الحكم، ارتفعت نسب الوطنية ولا يُمكن لأحد أن يُزايد على الآخر في مدى عشقه لبلده.

اشتدّت المواجهة بين البوليس والمحتجّين فتحوّلت إلى كرّ وفرّ.. استعمل البوليس كلّ الوسائل لتفرقة المحتجّين، خاطبهم بلين في البداية فطلب منهم أن يتقدّموا بمطالب للجهات المعنية حتّى يُنظرَ فيها، ثمّ كثّف من عناصر الشرطة لإرباك قاطعي الطريق، وفي مرحلة ثالثة استعمل الغاز المُسيل للدموع.

وصلت المواجهة إلى أعلى درجاتها، تمكّن المحتجّون من إلحاق ضرر كبير بالعناصر الأمنية فأصيب عدد كبير منهم، عندئذٍ أمر قائدهم باستعمال البنادق فتتالت الطلقات

موجّهة نحو المواطنين أدّت إلى سقوط الكثير من الجرحى وبعض القتلى.

كان «حمّة» من بين المُحتجّين، كان هادئا في البداية، استجاب لطلب أبناء حيّه حتّى يدفع عنه الظّلم والقهروالفقر.

وفجأة ظهر غريمه، ذلك الّذي افتكّ منه حبيبة قلبه «وردة» وهدّده علناً، اليوم سيقتصّ لنفسه ويثأر لمبادئه، اختطف هراوة ضخمة واتّجه نحوه، قال له بكبرياء اليوم نلتقي رجلا لرجلٍ بعد أن التقينا يوماً ظالماً بمظلوم وقاهراً بمقهورٍ، «وردة» اليوم لم تعد تعنيني، أعشاب طفيليّة اقتلعتها من حديقتي ورميت بها خارج أسوارها، كانت تفوح عطراً فأضحت تفوح روائح نتنة.. أنا سأثأر اليوم لكرامتي مرّتين، الأولى منك أنت بعد استغلالك لمنصبك والثانية من النظام الّذي يحميك أو الّذي تحميه.

انهال عليه بالهراوة فضربه ضرباً مبرّحاً ثمّ اشتدّ العراك بينهما سرعان ما تحوّل إلى عراك بين المحتجّين والبوليس.

كان «حمّة» من بين المصابين، الكثير من الشهود أثبتوا أنّ الرصاصة الّتي أصابته لم تكن على وجه الخطإ، رصاصة موجّهة إليه مع سبق الإصرار والترصّد، رصاصة موجّهة إلى قلبه لإنهاء حياته.

مات «حمّة» ولم يجد من يثأرلكرامته ولا من اعتنى بعائلته، مات شهيداً لدفع الظّلم ولكنّ ها هي عائلته تتعرّض لظلم أشدّ، بعض الدنانير أُلقيت لهم لامتصاص غضبهم واستولى السياسيون على الحكم وأحكموا قبضتهم على الدولة.

- ١٦ -

فئةٌ قليلة جدّاً في «تونس» محظوظة، لم تصل إلى المعاناة الحقيقية وهذه الفئة إمّا أن تكون موالية إلى نظام الحكم وإمّا أن تكون من العائلات الثرية القليلة، على أنّ الفئة الأولى هي الأكثر حظّاً لأنّ العديد من الفئة الثانية قد تعرّضوا إلى الإهانة والتفقير.. ولعلّ الفئات الأكثر حظّاً فعلاً هي الّتي جمعت بين الاثنين، ومنها عائلة «فوّاز» الّتي تمتلك الأراضي الشّاسعة الصّالحة للزراعة والّتي توارثت مناصب مهمّة في البلاد مثل منصب العمدة.

و«فوّاز» أكثر حظّاً من الجميع، لكونه ابن العمدة الغنيّ صاحب الأراضي والمتعلّم صاحب شهادة جامعية، ومن النّادر جدّاً أن يجمع شخص بين الترف والعلم، على أنّ «فوّاز» لم يكن من الطلبة المميّزين ومع ذلك حصل على الشهادة الجامعية، وكان شأنه شأن «عبد الودود» لا يهتمّ بالسياسة في الجامعة على انخراطه في الحزب الحاكم وهو أمر أيضاً تتوارثه هذه العائلات.

في الجامعة كانت حياته مُسطّرة، كلّ طلباته مُستجابة- غرفة للسّكن في المبيت الجامعي في الطّابق السّفلي وهو طابق

الفئات المميّزة، يحصل على جميع المنح - منحة المستلزمات الدراسية من المعتمدية والمنحة الجامعية وبطاقات للنقل العمومي مجاناً.

أربع سنوات من الترف والتأنّق في اللّباس والنجاح في الدراسة، لم يكن خبيثاً ولا طيّباً إلى حدّ السذاجة، ومع هذا كلّه كان زير نساء، يقتنص الفتاة بسرعة قصوى ولا يقتصر منهنّ على واحدة - إحداهنّ تساعده في الدراسة، والأخرى تكون رفيقته في دور السينما والمسارح، والثالثة يقدّمها قرباناً لبعض الأساتذة كي تكون لهم واسطة للنّجاح في آخر السّنة، كان يغدق عليهنّ بالهدايا بمناسبة أو دون مناسبة، يساعدهنّ في الحصول على مبيت جامعي، ويتصدّق عليهنّ أيّام الفقر والعوز.

ثقافته محدودة وكذلك ذكاؤه ولكنّه كان يحفظ الدروس عن ظهر قلب، يعيد ما أملاه الأستاذ في الدرس دون زيادة أو نقصان.. وبعد أربع سنوات تحصّل على شهادة الأستاذية في التّاريخ فاشتغل مدرّساً للتعليم الثانوي ثمّ مديراً لمعهد ثانوي فمديراً جهوياً للتعليم، لكنّ كلّ هذه المناصب لم ترق له لأنّ العمل في وزارة التربية مضنٍ ولأنّها الوزارة الّتي تقع عليها كلّ العيون التحق بوزارة الثقافة مديراً للمُتحف الأثري ببارد وثمّ رئيس مصلحة في الوزارة ثمّ مستشاراً ثمّ وزيراً للثقافة.

تسلّق كلّ المناصب بسرعة قُصوى، ولم يقف عند هذا الحدّ بل اشتغل ملحقاً في جريدة «الحريّة» يكتب مقالات تمجيدية في الحزب الحاكم أو في رئيسه حيناً وحول بعض

المتاحف الأثرية حينا آخر، وفي الحقيقة لم يكتب مقالاً واحداً طيلة حياته بل يشتريها من الطلبة مقابل إسداء خدمة أو وساطة لقضاء بعض الشؤون.

على طابعه الوصولي ورغبته في التسلّق السّريع للسلّم من أجل الوصول إلى أعلى المناصب لم يكن حقوداً ولا سيّئ الطبع، يُساعد زملاءه الطّلبة ماديّاً ومعنويّاً لمّا كان طالباً كما يُساعد الفقراء والمحتاجين والباحثين عن وظائف دون شروطٍ قاسية ودون أن يرفض الهديّة من أيّ كان.

تسير حياته بشكل مستقيم، على إثر تخرّجه مباشرة تزوّج من طبيبة أسنان وأنجب بنتاً وولداً.. الفتاة تدرس الطبّ في ألمانيا في حين يدرس الابن التمثيل والإخراج السّينمائي في الولايات المتحدة الأمريكية، في بداية زواجه اشترى شُقّةً في المنزه ثمّ أهداه الحزب الحاكم أرضاً مُهيأة للبناء في بحيرة «تونس» تمكّن من بناء فيلاّ صغيرة عليها وإقامة عيادة لزوجته بعد استقالتها من العمل في المستشفى العمومي.

زهاء عشرين سنة مرّت من حياته لم يعرف فيها الألم والحزن، حياته في تصاعد مستمرّ نجاح في الدراسة والزواج والعمل، تمكّن من أن يكتسب مكانة مرموقة داخل المجتمع إضافة إلى ثروة لا بأس بها من العمولات الّتي يقبضها من أموال دعم الوزارة للفنّانين والسينمائيين والمسرحيين، عشرون بالمائة نصيبه من كلّ مشروع دعم إضافة إلى نصيبه من الحفلات المدرجة في المهرجانات الصيفية.

وفجأة تنقلب الحياة مع حلول الثورة، الحدث المفاجئ للجميع.. في البداية اعتقد أنّه مجرّد عصيان مدنيّ لشباب متهوّرين سرعان ما يتمكّن هرم السّلطة من القضاء عليهم، ومع الأيام تحوّل العصيان إلى تمرّد فثورة حقيقيّة تجوب البلاد شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً.

كتب العديد من المقالات التمجيدية لإنقاذ النظام، حضر في العديد من البلاتوهات التلفزيّة لصدّ الثورة، تعهّد مع مناضلي الحزب على إصلاح الأخطاء المرتكبة في الماضي، بذل الكثير من الجهد للحفاظ على الهدوء والاستقرار في البلاد، ولكنّ كلّ محاولاته وطاقم الحزب باءت بالفشل.. فشل نظام الحكم كما فشل كلّ الوزراء في إقناع الشّباب بالهدوء.

في الوزارة باغته جمهور من المحتجّين بعضهم يريد استرجاع أمواله المنهوبة غصبا، وبعضهم يريد الانتقام لنفسه من جرّاء الحرمان من الدعم لإنجاز مشاريعه الفنيّة، والبعض الآخر لا يعلم لِمَ احتجّ؟ ولمَ اقتحم الوزارة مع جمهور المحتجّين؟

بقي في سجن الإيقاف لأكثر من سنة ولا يعرف التهمة الحقيقيّة الموجّهة إليه، طالب محاميه بإخلاء سبيله نتيجة غياب شاكٍ حقيقيّ أو متضرّر فعلي من أعماله، ثمّ قُدّم للنيابة العموميّة ملف طبّي يُثبت تدهور حالته الصحيّة، ومع ذلك لم يتمّ إخلاء سبيله.

في السّجن عذابات كثيرة ومعاملات سيّئة من السجّانين ومن المساجين، بعد أن أودعه المحتجّون قسم الشرطة حوّل مُباشرة للإيقاف.. أربع ليالٍ مُتتالية في بيت صغير يفترش حصيراً بالياً وتُقدّم له أطعمة عليها أوساخ وروائح كريهة.

في هذه الأيّام عرف معنى الذلّ والإهانة والفقر. وفي حياته لم يعرف ألوان الفقروالجوع وافتراش الأرض الصّلبة الباردة، وبعد أن نُقل إلى السّجن حُرم من زيارة عائلته لأشهر، تلقّى العديد من الشتائم لمّا اكتشف المساجين منصبه السّابق، نام على البلاط، دون غطاء أو وسادة ثمّ اشتغل بتنظيف المراحيض و قاعات النوم.. ثمّ انتقل إلى طبخ الشاي والقهوة ثمّ غسيل الأواني والملابس.

خلال سنة واحدة تعلّم كلّ المهن وتلقّى الإهانات، ومع السماح لعائلته بزيارته تُفتكّ منه «القفّة» فيتقاسمها المساجين ويلقون له بالفضلات.

ومع مرور الأيّام تعكّرت حالته وتدهورت صحّته، ولمّا زاره المُحامي حكى له كلّ المصائب الّتي حلّت به في السّجن، طلب منه حلاً لإنهاء الأزمة الّتي يمرّ بها، يعرف أنّ الخروج من السجن بدا مستحيلاً خصوصاً بعد علمه بحجز الدولة لكلّ ممتلكاته: الفيلاّ والسيّارات والأرصدة البنكية والأراضي الفلاحيّة، المهمّ إيجاد حلّ يوقف الإهانات المستمرّة الّتي يتعرّض لها من قبل الجميع.

في الجلسات الأولى أخبره المحامي أنّ وضعه حرج للغاية وتزامن ذلك مع صعود أعدائه من الإسلاميين إلى الحكم..

ومع مرور الأيّام أسرّ له قرب خروجه من السّجن لضعف قادة الحكم ولعدم تمكّنهم من إثبات التّهم عليه، وفي الجلسات الأخيرة أكّد قرب خروجه من السّجن واسترداده لجميع ممتلكاته، وربما يقع الاعتذار له على الأشهر الّتي قضّاها في السّجن دون وجه حقّ.

خرج من السّجن غير أنّه لم يتمكّن من الهروب من محاكمة الشّعب له، في الشّارع وفي الحيّ يتلقّى العديد من الإهانات والاحتقار، الكثير من السباب.. قرّر أن يُسافر إلى مدينته الصّغيرة هروباً من ضوضاء العاصمة ، وأملا في هدوء العاصفة.

كلّ المخاوف الّتي انتابته إبّان الثورة سرعان ما تبدّدت وتناثرت.. فالحكومة الجديدة تشتّتت مهامها بين صياغة الدستور الجديد والاهتمام بتلبية حاجيات الجماهير العريضة الضّاغطة من أجل الحصول على الغنيمة بعد انتهاء الثورة، لعلّ الحيلة قد انطلت على هذه الحكومة أو لعلّهما من السذاجة بمكان ومن قلّة الخبرة وهو ما جعلها تنجرّ وراء إرضاء الجماهير والردّ على الخصوم السياسيين وإثبات الوجود في الحكم وتناست الوطن، كان عليها أن تطهّر البلاد من الدنس أوّلاً ثمّ تولّي وجهتها نحو البناء والتأسيس، أو لعلّ هذه الحكومة ترنو الوصول إلى السّلطة فقط بعد

غيابها لعقود وتسعى إلى تركيز وجودها.

تعدّدت الأسئلة في ذهن «فوّاز» ولكنّ الجواب واحدٌ وهو خروجه سالماً من هذه الانتفاضة البائسة كما يحلو له تسميتها، ولم يقف عند ذلك الحدّ سيسعى الآن إلى المطالبة باعتذار يستردّ به كرامته وبتعويض عن سنوات السّجن ظلماً، أصبح شرساً في الدّفاع عن نفسه وعن حزبه المنحلّ، ارتكز على حجّة يراها عقلية ومنطقية وواقعيّة وهي أنّ رجال الحزب قد ساهموا بشكل فعّال في تدعيم ركائز الدولة الوطنية الحديثة العادلة والمتطوّرة، كما أنّ النظام السّابق كثير العناية بذوي الاحتياجات الخاصّة والفقراء والمساكين، ففي عهده تتوفّر جميع السلع والبضائع بأثمان زهيدة، وأنّ الفقراء والأغنياء يتساوون في مستوى العيش، هذا إضافة إلى انتشار الأمن والسّلم.

الآن لم يعد الخوف يسيطر على قلبه. عاد إلى «فِيلّته» على ضفاف البحيرة وعادت زوجته إلى الشّغل من جديد، وُظّفت ابنته مؤخّراً طبيبة في المستشفى العمومي كما وُظّف ابنه في مؤسّسة الإذاعة والتلفزة الحكومية.

وبعد استقرار عائلته أحسّ بالفراغ، طلب العودة إلى مهنته الأولى مدرّساً للتاريخ، لكنّ ذلك لم يرق له فقرّر إنشاء حزب سياسيّ مُعارض أحد أهدافه الأساسية هو إعادة البلاد إلى ما كانت عليه قبل أحداث ١٤ جانفي من حيث الاستقرار الأمني وتوفّر لقمة العيش للفقراء والمساكين.

- ١٧ -

كان «عبد الودود» رجلاً صموتاً يكره الثرثرة والخطب الجوفاء، حياته هادئة ولا تسمع له صوتاً سواء في المعهد الثانوي أو في الجامعة، يُلازم غرفته طيلة اليوم، يُنظّم حياته ومواعيده وفق مواقيت الصّلاة، يُحبّ النظافة والانضباط حبّاً جمّا، لا يعرف للمزاح وجهاً وحتّى إن صادف أن روى طُرفة تكون من صميم الواقع لا يتزيّد فيها ولا يُنقص، مُنكبّ في مطالعاته على كتب التّاريخ مقتصراً على سيرة الأنبياء والخلفاء وعلى تاريخ نشأة الإسلام وتطوّره.

وفي الامتحانات يلتزم التزاماً دقيقاً برؤية الأستاذ المدرّس للمادّة فلا تجد في أعماله نقداً أو تطفلاً على حقبة تاريخية أو قائد.. وعلى وضوحه وشفافية تعامله مع جميع زملائه يُذكر له غموضاً واحداً أصرّ على كتمانه، إذ كان يَختفي من المبيت الجامعي أو من الجامعة لأيّام دون سابق إعلام.

ومع كلّ ذلك فإنّ له سمة لا تُنسى فقد كان يعرف جميع وجهات نظر الطّلبة والأساتذة، ومواقفهم السياسية، وتوجّهاتهم الفكرية. وعلى ضوء ذلك تكون ردّات فعله.

وإذا كان بخيلاً لا يتكلّم وشحيحاً لا يتحرّك كثيراً فإنّه كريم معطاء، يطبخ الطّعام أيّام العطل والآحاد فيستدعي جميع

جيرانه ويُشاركهم المائدة، وكان يُحدّث دائماً أنّ أجمل ما في الإنسان هو اجتماعه وتوافقه لذلك لُقّب في الجامعة بأبي الوفاق.

كان لعائلته دخل مُحترم ساعده على مواصلة دراسته، ومع ذلك يشتغل في العطل المطوّلة ويسعى إلى كسب رزقه بعرق جبينه كما كان يُحدّث.

جمعه بـ «فوّاز» و «مهدي» صداقة لانحدارهم من مدينة واحدة بل لانتمائهم إلى حيّ واحد، فقد كانوا لا يفترقون في السكن والدراسة والتنقل، لكنّ باعدت بينهم المشاغل في السنة الأخيرة، فقد انخرط «مهديّ» في سلسلة تحرّكاته النضالية فشغلته و«فاطمة» عن جميع الأصدقاء، أمّا «فوّاز» فقد كان كثير التردّد على مقرّ جريدة الحريّة يُساعد في رقن بعض المقالات أو يتلقى تكويناً حزبياً، أمّا «عبد الودود» فلازم جامعة الزيتونة بعد أن تعرّف على صاحبة النقاب وكانت تسمّي نفسها «آمنة» .

لم يكن «عبد الودود» سياسياً بل إنّه لم يجرّب الممارسة السياسية الفعلية على فهمه الدقيق للمبادئ الّتي تقوم عليها الأحزاب، وعلى هذا البعد كان ميّالاً إلى الإسلام السياسي، يُتابع أنشطته عبر النشرات ويطّلع عن فكره وتوجّهه ومبادئه عبر بعض الكتب الّتي تصل من مصر أو من غيرها من الدول الشرقية الشقيقة.

ولمّا تعرّف على «آمنة» تغيّرت حياته.. على الرّغم من جهله بكلّ المعطيات حولها، فقد كان لها دور فعّال في استقطاب الفتيات من الجامعة أو خارجها لتعلمهنّ الدّين ومبادئ الحزب الذي ينشط خفية، وكانت تتميّز بالجرأة وسرعة البديهة وكثرة العمل والنشاط، تدرس في الجامعة صباحاً وفي المساء تلتقي بالمنخرطات الجدد وفي الليل تقدّم لهنّ دروساً.

أوّل لقاء لها مع «عبد الودود» كان في مكتبة الكلية، كان «عبد الودود» تائهاً يبحث عن مراجع لإتمام بحثه، تبدو عليه سمات الطيبة والصّدق، فاقتحمت حياته.. ساعدت في الحصول على المراجع المطلوبة، ثمّ في ضبط التصوّر العام للبحث وضبط تخطيط مناسب له إلى أن تطوّر بينهما النقاش فأدّى إلى الخوض في مسائل يومية، وفلسفية، وسياسية، ودينية.. تمكّنت بخبرتها من إقناعه بوجهات نظرها في الدّين والسياسة، رسّخت في ذهنه أن لا معنى لدولة إسلامية إذا لم يحكم قائدها بأحكام الشريعة الإسلامية.

انجذب كثيرا لهذه الأفكار الّتي تتماشى ومبادئه، انخرط بسرعة قُصوى في التيار الجديد فحضر بعض الاجتماعات السريّة ووزّع المناشير خِفيَة.. لكن التحاقه بالحزب الإسلامي تزامن مع حرب الخليج الأولى فأعلنت وزارة التعليم العالي انقطاع الدروس إلى حين انتهاء الحرب.

وصلته أنباء دعته إلى الاختفاء والكفّ عن النشاط السياسي، فإعلان توقيف الدروس لم يكن خوفاً من اندلاع

حرب كونيّة بقدر ما كانت فرصة سانحة للرئيس الجديد لتصفية خصومه السياسيين من مختلف التيارات ولا سيما من الإسلاميين.

مكث «عبد الودود» كلّ فترة المراجعة في منزل عائلته بعد أن أُغلقت الجامعات والمبيتات الجامعية.. وكل المساءات يجتمع في المقهى مع صديقيه «فوّاز» و«مهدي»، ولعلّ هذه اللّقاءات هي الّتي جنّبته الوقوع في مطبّات لا يُحمد عقباها من دون أن يعلم، ومن حُسن حظّه أن سيطرة النقاشات حول حرب الخليج أدّت إلى تناسي صديقيه مشاغل الوطن إن عمداً أو سهواً.

وعلى الرغم من انتهاء الحرب وإعلان الوزارة عن عودة الحياة الجامعية فإنّ أغلب الطّلبة قد مكثوا في ديارهم خوفاً من عودة الهلع والكرّوالفرّمن جديد.

وقبل الامتحانات بأيّام عاد مع صديقيه إلى الجامعة، وفي المبيت كان قلقاً على غير العادة.. لأشهر لم ير المرأة الّتي حيّرته وزرعت في قلبه مشاعر جديدة «آمنة».. كيف يجد حلاّ والبوليس قد منع دخول الجامعات إلاّ لطلبتها؟ كيف يصل إلى جامعة الزيتونة حيث الّتي آمن بها؟

اهتدى أخيرا إلى حلّ.. طلب من أستاذه المشرف ترخيصاً يُمكّنه من دخول جامعة الزيتونة لمواصلة بحثه، لم يعد البحث يعنيه بقدر ما تعنيه «آمنة». اشتاق إلى مغامراتها، إلى

حديثها، إلى تحاليلها وحججها.. لم يُحب «آمنة» الجسد فهو لم يرمنها سوى كتلة سوداء بل أحبّ «آمنة» الخطيبة والمناورة.

في جامعة الزيتونة، بحث في كلّ الأمكنة والمنعطفات، في الأقسام والمدرّجات وقاعات المراجعة والمكتبة.. لم يعثر عليها ولم يتعثر بها.. قرب موعد صلاة العصر وهو الزمن الذي اعتاد أن يُغادر فيه الكليّة إلى المبيت بواسطة الحافلة المخصّصة لنقل الطّلبة.

وما إنّ همّ بالمغادرة حتّى تعثّر بها في أحد أروقة الجامعة.. كانت تتخفّى عمداً لأنّ العيون كثُرت ومُحاصرة المتديّنات على أشدّها.. انتهت به إلى ركن ركين حيث لا يراهما أحد وسلّمته رسالة واختفت في لمح البصر.

لم يشأ العودة إلى غرفته حتّى لا ينكشف أمره، فالرسالة الّتي باتت قنبلة موقوتة يُمكن آن تنفجر في كلّ آن وحين، انعطف نحو حيّ الملاّسين حيث تنشر المقاهي الشعبية، انزوى في مكان وشرع في القراءة:

« أحييك بتحيّة الإسلام: السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقبل أن أروي لك ما حدث ويمكن أن يحدث. أعرّفك على نفسي. لقد لمحت فيك جديّةً لا توصف وصدقاً لا ينضب لخدمة الإسلام والمسلمين.

من اليوم لم تعد «آمنة» موجودة في الجامعة سيُعلن وفاتها بعد أيّام وتُشيّع إلى مثواها الأخير وبعد أسابيع قليلة ستظهر «فضيلة» فتاة سافرة بلا حجاب ولا نقاب، وبعيدة

كلّ البعد عن الممارسات السياسية العلنية.

هذا قرار الحزب لما رآه من خطر مُداهمٍ لأبنائنا في الجامعة وخارجها، وبعد هروب الشيخ ومطاردة أغلب الناشطين والزجّ بهم في السّجون بات الحذر واجباً بل وجب أخذ كلّ الاحتياطات اللّازمة للمحافظة على العناصر السرّية لذلك طُلب منّا الهدوء والكفّ عن العمل في الوقت الرّاهن لأنّه ينتظرنا في مُستقبل الأيّام نضال شاقّ لمساعدة إخواننا المظلومين في السّجن.

نلتقي مُجدّدا في جامعة الزيتونة مع ضرورة الالتزام بالحذر.

مع فائق الودّ والنضال / «فضيلة».

والسّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

كوّم الورقة بين يديه وطلب من النّادل قهوة بلا سكّر تُساعده على أن يستوعب مضمون الرّسالة بل يُدرّب القلب على نسيان «آمنة» الميّتة بعد أيّام ويُدرّبه على حُبّ «فضيلة».

أخذ الولاّعة حتّى يتدرّب على كيفية إحراق كيانه وهو الكاره طيلة حياته لدخان السّجائر ويُشعل النّار في الرّسالة طلبا للنسيان وحرق ماضي جامعة الزيتونة، عليه الآن أن يُحرق ماضيه أو أن يحترق هو ويَفنى في العدم بلا عودة.

كيف يُمكنه أن يُغيّر مفاتيح قلبه، أيستبدل مفتاح «آمنة» بمفتاح فضيلة، بات الحبّ كلعبة المفاتيح بل أضحى حاملة مفاتيح يختار منها المفتاح المناسب في الزمن المناسب. وكيف يعشق فضيلة بعد «آمنة». وهل يرتبط الحبّ بالأسماء أم

هل يرتبط بالقلوب؟ تبعثرت حياته وانقلبت رأسا على عقب.

تباً لكلّ الحروب الّتي تكون قطيعة وحدّاً فاصلاً بين قلبين اجتمعا ليناضلا معا.. عشق «آمنة» كما عشق النضال في سبيل الوطن وهل يمكن اليوم أن يعشق «فضيلة»؟ القلوب هي نفسها والأسماء مُتغيّرة.

وحتّى يُواريَ مأساته أمام زملائه دفن وجهه بين الكتب ولازم المكتبة.. لكنّ زميله «مهديّ» كان نبيهاً تفطّن إلى تدهور حالته النفسية وتعمّده الاختفاء، سأله ذات غفلة وهما منهمكان في المراجعة:

باغته بسؤال: ما به صديقي «عبد الودود»؟ أراه مضطرباً، كنت أراه متّزناً هادئاً لا يقترب منه الحزن.

أجابه برعشة في شفتيه: هي الامتحانات تزرع فينا الضغط والتوتّر لا غير.

- لا أظنّ، فمنذ أربع سنوات لم أر منك هذا التوتّر غير المنقطع، إضافة إلى غيابك المستمرّ عن الجامعة وانقطاعك عن زيارة جامعة الزيتونة وملازمتك للغرفة.

عرف «عبد الودود» أنّ «مهديّ» عازم على اكتشاف حزنه ومأساته، عمد إلى اختلاق حكاية من الواقع، حدّثه عن مرض «آمنة» مرضاً لا يمكن أن تصحّ بعده، لقد أجمع كلّ الأطبّاء على موتها الوشيك ولا أمل في نجاتها.

بعد أيّام اهتزّت الجامعة كما اهتزّ الوطن على خبر وفاة المناضلة السياسية الإسلامية «آمنة». خبرٌ أسال حبراً كثيراً

خصوصاً من قبل الصحافة العالميّة وأثار ردود فعل متباينة في صفوف المعارضين، وهو خبر أيضا أجبر الرئيس الجديد على الكفّ عن مُهاجمة الإسلاميين داخل الوطن.

دُفنت «آمنة».. ولا يعرف أحد أين دُفنت؟ ومتى دُفنت؟ وما ردّ فعل عائلتها؟

كلّ هذا حيّر «عبد الودود» إضافة إلى أنّ بين «آمنة» و «فضيلة» في قلبه بوناً شاسعاً.. هو قد عشق «آمنة» أمّا فضيلة فغريبة عنه.

لمّا جلست إلى جانبه في مكتبة جامعة الزيتونة ظلّ ساكناً لا يتحرّك، مجرّد كتلة جسدية تهالكت حذوه، أمّا لمّا خاطبته بصوتها الرقيق عاد به العهد إلى الصوت الملائكي المتكرّر في أذنه. بدأ قلبه في الاشتغال.

خاطبها بصوت ملؤه الحيرة: استأنست بصوتك الملائكي أمّا شكلك فبات غريباً عنّي. هل يعشق الإنسان الصوت لا الجسد.

قالت: الأذن تعشق قبل العين أحياناً.

قال: بئس الشاعر والشّعر!

قالت: وجب أن تغيّر حياتك نحو الجديد، إنّ في العودة إلى الماضي هلاكاً لنا جميعاً، عليك أن تتغيّر وتُقبل على الحياة وإن استطعت الانخراط في الحزب الجديد فلا تتردّد، وجب أن نُغيّر أساليب النضال، فالغاية تُبرّر الوسيلة.

بأسلوبها المميّز تمكّنت من أن تثير فضوله وتقرّبه إليها، ومع نهاية الامتحانات بات عاشقاً لـ «فضيلة» مُغرماً بها، وبعد التخرّج وُظّفا أستاذين للتّاريخ والتفكير الإسلامي ثمّ تزوّجا.

لم يُفكّرا في الإنجاب لأنّ مهاماً عسيرة كُلّفا بها من قبل حزبهم المحظور، أو لعلّ سرعة تطوّر الأحداث باغتتهما، بعد هدوء البلاد واستقرارها وصلتهما رسالة سرّية لإعادة النشاط من جديد، كان الحزب يُفكّر في تنشئة خلايا جديدة بنشر ما يُسمّى بالدعوة، لم يعرفا صاحب الرسالة لأنّ الحزب كان كثير التكتّم من القيادة تصل الأوامر إلى القواعد فتنفّذ دون مناقشة، وهذه من السّمات الأساسية الدّاعمة لاستمرار وجوده، لا تعرف القواعد كثيراً ما يدور في المركز، وتلك الأسباب أدّت إلى الفشل أيضاً لأنّ التطبيق الأعمى يؤدّي أحياناً إلى كوارث ناتجة عن سوء فهم الرسائل المشفّرة، فوقعت القواعد في مواضع كثيرة في مطبّات لا يُحمد عقباها، ومنها استعمال العنف والإفراط فيه أحياناً وهو ما يُشجّع الحزب الحاكم على ردّ العنف بالعنف، وحتّى وإن أنكر الإسلاميون ما نُسب إليهم من أعمال عنيفة فإنّ ذلك لا ينفي فشلهم الذريع وسوء التواصل بين المركز والقاعدة تكون بمقتضاها المعاملات شفّافة.

ومن علامات سوء التواصل أو لنقل من علامات إحكام الحكومة الجديدة السيطرة على مفاصل الدولة وزرع العيون على امتداد جغرافية البلاد، سرعة انكشاف الرسّالة الّتي وصلت إلى «عبد الودود». أُقتيد وزوجته إلى السّجن.

وتلقيا أشدّ أنواع العذاب، جرّدوهما من ملابسهما.. ولمّا تبيّن لـ «عبد الودود» حال زوجته من جرّاء سوء المعاملة المتأتّي من التعذيب والتحرّش أعترف أن لا ذنب لها ولا تعلم عن الرسالة شيئاً، ومع ذلك قبْل إطلاق سراحها تعمّدوا إهانتها ثمّ فصلوها عن العمل.

أمّا «عبد الودود» فقد تلقّى أشدّ أنواع العذاب، سعوا إلى انتزاع اعتراف منه ثمّ حاولوا معرفة الخلايا النائمة الّتي قد تقوم في أيّ زمن وتعكس الهجوم وتطيح بالنظام، ولمّا فشلوا لجهل «عبد الودود» بكلّ التفاصيل مزّقوا جسده، علّقوه، أجلسوه على قارورة خمر، منعوا عنه الطعام، سكبوا عليه فضلاتهم وحاولوا أن يطعموه بها.

حُكم عليه بالإعدام شنقاً حتّى الموت لكنّ إزاء تهديد مُنظّمات حقوق الإنسان اكتفوا بسجنه مدى الحياة. فقضىّ أغلب سنوات الإيقاف في سجن منفرد لا يكلّم إلاّ الحيطان.

ومع بداية الثورة المجيدة كما كان يُسمّيها تعالى صوته من جديد، تكلّم عن النضالات، عن الظلم والقهر، عن السّجن، عن حقّهم في حياة كريمة وفي ممارسة السياسية وخدمة البلاد.

بعد الانتخابات الأولى إبّان الثورة اعتلى كرسيّ السيّادة ونُصّب وزيراً، تغيّرت ملامحه كثيراً، كان نحيفاً فامتلأ بطنه، صار مع الامتلاء عملاقاً، تغيّرت ملامحه من سواد البشرة إلى بياضها، فزالت علامات القهر والوجع لتظهر علامات الرّاحة والطمأنينة.

- ١٨ -

«فاطمة الشوّاشي» فتاة مُدلّلة، ولدت بعد سبعة من الأطفال، شبيهة بجدّتها شبهاً كبيراً لذلك سُمّيت «فاطمة» على اسمها. فتاة ذكيّة منذ نعومة أظفارها تعشق كثيراً سماع الحكايات الأسطورية الّتي تروي قصص الأبطال الخوارق ومطالعة الروايات القديمة.. عائلتها ضاربة أعماقها في الفلاحة، وأهل الفلاحة هم أهل كرم وعزّة.. تفوّقت في الدراسة منذ الصغر، في الكُتّاب حفظت نصف الكِتاب وأكملت نصفه في المرحلة الابتدائيّة، أمّا في المرحلة الثانوية فتميّزت كلّ الامتياز فحصلت على شهادة البكالوريا بملاحظة تشرّف العائلة.

أغلب العائلة عارضت التحاقها بالجامعة لا سيما بعد توارد الخطّاب عليها من الشخصيات المهمّة، تحدّت إخوتها السبعة بل أقنعتهم كما أقنعت أباها بضرورة الالتحاق بالجامعة لأنّ هناك مشروعاً شغل فكرها تريدُ البحث فيه والكشف عن أسراره. هو مشروع إعادة صياغة التّاريخ من جديد.. فقد كانت عائلتها في صراع مُستمرّ مع إحدى العائلات المُجاورة حول الأرض. تُتّهم عائلتها بأنّها نازحة من الأندلس، من المورسكيين الغاصبين لأرض «فاقا».. واشتدّ الصراع لحظة

غضب الزّعيم منهم، وهو في الحقيقة غضب ناتج عن الصراع الحادّ داخل السّلطة بين زوجة الزعيم من أهل الشمال من جهة وفئة أخرى سيطرت على السلطة منذ الاستقلال، وقد ساندت عائلة «فاطمة» شقّ الزوجة لذلك أصبحت عائلة مغضوباً عليها فنُبش في تاريخها وسعى أصحاب السلطة إلى انتزاع جميع أراضيها بعلّة أصلها الأندلسي الغاصب والمستعمر لأرض «باجة».

اهتمت «فاطمة» كثيرا بهذه المسألة، نبشت في تاريخ عائلتها محاولة لإثبات نسبها وملكيتها للأرض، المورسكيون هم من المهاجرين الأندلسيين لكنّهم ساهموا في ازدهار هذا الوطن بمعمارهم الجميل وصنعهم للشاشيّة والعديد من الحرف الأخرى.. كان اقتصاد البلاد قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، وبفضل حرفهم ساهموا في إنقاذه، فالبلاد تشكو عصراً من تدهور الصناعة الحرفية ومع قدومهم تطورت الصناعات تطوّراً كبيراً، فكان لهم دور فعّال في تطوّر اقتصاد البلاد من جهتي الصناعة والتجارة فاشتروا الأراضي وامتلكوا العقارات.

المورسكيون أثروا البلاد بصناعاتهم وحرفهم وعاداتهم الغذائية وعمارتهم المميّزة، هذا هو البحث الّذي تروم الانتهاء من خلاله إلى أنّ «قرطاج» بلد الانفتاح ولا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بما يُثري به الوطن ويُسهم في ازدهاره وتطوّره.

«تونس» بلد الانفتاح، من علّيسة إلى الهلاليين إلى الأغالبة إلى الفاطميين، أنتجوا ثقافة الاختلاف والانفتاح

وهو ما يعكس طبيعة التونسيين اليوم وهي طبيعة قائمة على التسامح وقبول الآخر، فلمَ الإنكار لأهل الأندلس؟ ولمَ لا يذكرهم التّاريخ؟ ولا يذكر إنجازاتهم؟

هي أسئلة مُتعدّدة دفعتها إلى أن تكون طالبة تاريخ في كليّة العلوم الإنسانية والاجتماعية، دفعها الحماس إلى إعادة كتابة تاريخ «تونس» من جديد، ترى أنّه تاريخ مزيّف ماضياً وحاضراً وخصوصاً في فترة الاستعمار.. ترغب في إظهار ما خَفي وتصويب ما زُيّف، الكثير ممّن بذلوا حياتهم في سبيل الوطن ولكنّهم يُلقون في خزائن النسيان.

لمّا دخلت الكلية ولّت وجهها قِبَلَ المكتبة، تجمع ما تناثر من أخبار حول «تونس» ماضياً وحاضراً، قسّمت النهار إلى قسمين، حضور المحاضرات صباحاً والركون إلى المكتبة مساء.

وهي منغمسة في البحث والدراسة والمطالعة اصطدمت بـ «مهدي»، نشب بينهما في اللحظات الأولى خلاف حادّ حول بعض الأحداث التّاريخية لأنّ الاختلاف بينهما جوهريّ، هي من عاصمة الأندلسيين وهو من عاصمة الأغالبة، ولكنّ سرعان ما تحوّل ذلك الصدام إلى حبّ عميق، كان رجل الثقافة العميقة والذكاء الحادّ وسرعة البديهة وعمق التحاليل، رجل المهمّات الصعبة والجرأة الأبدية.

بعد غلظة دامت عقدين من الزمن تدافعت نبضات قلبها وتعالى خفقانه، لم تُرتّب لهذا الحبّ بل أتى بشكل مفاجئ واقتحم عليها كلّ كيانها، وكلّما اشتدّ صراعها مع «مهديّ»

حول فكرة مّا إلاّ وتصاعد الحبّ في قلبها، في المرحلة الأولى من الدراسات الجامعية أقبلا على المطالعة وقراءة الكتب أمّا في المرحلة الثانية فصعدا على المنابر في الساحة الحمراء لتغيير عقول الطلبة بخطب تزعزع أركان الجامعة.

وعلى إثر التخرّج غاب «مهديّ» في معترك الحياة وترك على طاولة المطبخ رسالة الغموض فشلت في فكّ ألغازها، غادر بدون رجعة وبدون اتّصال يُريح القلب ويؤنس الوحشة.

شهدت حياتها تذبذباً كبيراً، غياب «المهدي» من جهة، ضغط الدولة على حريّة التعبير وفرض قرارات تمنع النبش في تاريخ البلاد، ضغط العائلة ودعوتها الملحّة إلى القبول بزوج من العرسان المتوافدين عليها خصوصاً بعد أن أنهت دراسات المرحلة الثالثة وعُيّنت في الكليّة نفسها أستاذة مُتعاقدة.

حاولت أن تبحث عن صدى لحبيبها، سئمت الوحدة والضغط، وذات صدفة وهي تقلّب إحدى الصحف العربية الشّهيرة اصطدمت بمقال له يهاجم رأس السلطة، بحثت عن أخباره اتّصلت ببعض الصحافيين العرب المقيمين خارج حدود البلاد وكانت الصدمة.

«مهديّ» رجل متزوّج بامرأة إيطالية ومدير شركة رأسمالية، لم تفق من غيبوبتها إلاّ بعد قبولها الزواج بأحد أساتذة الكلية، زواج لم يدم أكثر من ثلاثة أشهر، لم تقبل برجل يركبها غيره، بل كرهت أصناف الرجال جميعهم، بدا لها ذلك الرجل الذي تزوجته صاحب العلم والوقار مجرّد دمية

تحرّكه اللّذة.. اعتقدت أنّها قبلت بموسوعة علميّة زوجاً لها فإذا به يتحوّل في الفراش إلى كتلة من الغرائز لا ينفكّ عن الممارسة، هجرته كما هجرت الرّجال جميعا.

تفرّغت لحياتها العلمية فأنهت رسالة الدكتوراه في وقت وجيز، ثمّ كتبت العديد من المؤلّفات حول نقد النظام الرأسمالي المتوحش، رؤى جديدة للنظام الاشتراكي الاجتماعي، العديد من المقالات حول التلاقح الثقافي والديني في «تونس» وغيرها.

وعلى الرغم من الإغراءات المتتالية من السلطة لضمّها إلى صفّه لا سيما بعد القدرات التحليلية الّتي أظهرتها في إثبات أنّ «تونس» هي بلد الانفتاح ويتجلّى ذلك في توافد العديد من الأجناس والعرقيات عليها، فإنّها لم ترضخ، بقيت على حيادها الظاهري ولكنّها تُخفي ألماً عميقاً من سيطرة رأس المال المتوحّش.

إبّان الثورة ثارت هي الأخرى، نزلت إلى الشّارع لدفع الشباب من أجل تخليص الوطن من براثن التوحّش والظلم والتهميش، بذلت قُصارى جهدها لإنجاح ثورة الشّباب، قادت مسيرات ضخمة، دعت إلى العصيان المدني، تعالى صوتها وأعلن وقوفه إلى جانب الشّباب.

في لقاء تلفزيّ لها امتدحت ثورة الشباب ودعت إلى ضرورة

تغيير نظام الحكم بمنطق يتماشى ومطلب الشّباب الّذي تعرّض فعلاً إلى الإهانة والظلم، خطبت بصوتٍ عالٍ أن لا حكم اليوم إلاّ للشباب الذي أبدى شجاعة كبرى واستبسالاً في سبيل الوطن.. الشباب هو الّذي حرّر الوطن من براثن القهروالاستغلال والنفوذ والظلم.

ثمّ ختمت خطابها بقصيدة لابن تربتها، بل جدّها «عليّ الشواشي» (توفي ١٩٣٤م) ينتقد فيها «محمّد الصادق باي» الّذي أمضى على «معهادة باردو» يوم ١٢ ماي ١٨٨١م.

يا مدّعي الصّدق بين العرب والعجم
لقد تحوّلت من صدق إلى كذبِ
ها مسّك الضرّأو لاحت بوارقة
على سما قصرك الموعود للّعبِ
أم غرّك الذلّ واستولى عليك بما
تراه مُقتضباً لعقلك الخربِ
أو ضافك النّحسُ والأجفان ساهدة
فجُدت للضيف بالخضرا بلا سببِ
بعت الورى للعدا بتّا بلا ثمن
تبّت يدا البائع الملعون في الكتبِ
ماذا تقول وقد شوهدت في ملإ
كأنّ نشأته من طينة الغضبِ

مُصفّدا زائـغ العينين معتقـــــــلاً
تمشي على النّار مشي الخاسر الهربِ
آهٍ على سنجق الإسلام مزّقـــــــــه
علجٌ من الأغبياء قد باء بالغضـــبِ
لهفي على «تونس» الغرّاء باكيـــــة
بهيمُ أبطالها في الأبّ والحطـــــــبِ
*****

لـ «فاطمة» أوجاع عدّة: اختفاء «مهديّ»، الدكتاتورية الّتي مُورست على أفكارها الاشتراكيّة، وضع البلاد، وضعية عائلتها المُصغّرة، والوجع الأكبر وهو وضع عائلتها الكبرى: «باجة».

«باجة» أو كما يحلو لها تسميتها « فاقا» أو تموّجات سنابل القمح في الحقول عند هبوب النسيم، هذا هو معنى التسمية.. «باجة» تعني دقّة، القصبة، قصر باردو... كما تعني سيدي بوتفّاحة، باب العين ...وغيرها.

مدينة ضاربة في التّاريخ كان لها تأثير بالغ منذ عهد الرومان لما توفّره من مواد فلاحيّة تغطّي حاجيات البلاد، كما أنّها مدينة صناعية حرفية وثقافية، أنجبت العديد من العلماء والمثقفين كما ساهمت في ازدهار الحرف.

وعلى هذا التأثير فإنّ المدينة قد تنوسيت بعد الاستقلال، تنكّر لها الجميع وأنكروا فضلها، أصبحت قاب قوسين أو

أدنى من التهميش.

مُهمّة «فاطمة الشوّاشي» أن تثبت المكانة الحقيقية للمدينة الّتي نشأت وترعرعت فيها، كما تثبت الدور الفعّال للأندلسيين ومكانتهم في البلاد، وإزاء التهميش المتعمّد ازداد حقدها على جميع الأنظمة المُتعاقبة بعد الاستقلال، تسعى إلى تغيير مركز الحكم، لذلك لم تنخرط في أيّ من الأحزاب السياسية الحاكمة.

ومع حلول الثورة تسلحت بكلّ ما أوتيت من عزيمة وعلم وثقافة، شعارها إعادة كتابة تاريخ «تونس» على نحو دقيق وسليم، وكانت تشترك في هذا الحلم مع «مهديّ».

ترى أنّ الحزب الدستوري الليبرالي ما هو إلاّ امتداد للأحزاب الرأسماليّة المتوحّشة، وأنّه حزب سليل الحكم الغاشم والمستعمر الغاصب، جمّعت كلّ أدلّتها على أنّ ذلك الحزب إنّما هو عين المستعمر في «تونس»، لذلك رأت أنّ الفكر الاشتراكي مع بعض التعديل الطفيف يتناسب و العمل الفلاحي والحرف، لأنّ الفلاّحين والحرفيين هم من الطبقات الكادحة الّتي تأسّست عليها البلاد.

إبّان الثورة تركّزت خطبها وكتاباتها ومقالاتها حول المهمّشين باعتبارهم المناضلين الحقيقيين والمساهمين الفاعلين في تركيز اقتصاد البلاد، سعت بكلّ ما أوتيت من جرأة إلى التصدّي لرأس المال، نبشت في حقائق كثيرة وكشفت أسراراً عديدة.

ولم يقف نقدها عند الدستوريين بل كشفت عورات الإسلاميين.. برهنت على ضعف تكوينهم السياسي واستدلّت على ذلك بوقوف خطيهم عند فكرة النضال والتعرّض إلى السّجن واعتبار أنفسهم ضحايا الاستبداد والظلم، وبفضل ذكائها قلبت أدلّتهم إلى حجج عليهم، ومن ردودها أنّهم لا يمتلكون الخبرة الكافية في إدارة شؤون البلاد لأنّ السجن قد أضعف من عقولهم وقلّص من مواكبتهم لحركة التّاريخ، فهُم يتبنون الفكر الإسلامي القائم اقتصاده على الغنائم في الحرب، فهل يُمكن أن تقوم الدولة اليوم على هذه الأفكار البالية؟ لأنّ النظام الإسلامي في القرون الهجرية الأولى شجّع على التّجارة وعلى كسب الأموال من ذهب وفضّة من الغنائم عن طريق الإغارة على الدول المجاورة وفرض ضرائب على غير المسلمين، وهذا المنهج وإن نجح عصرئذ فإنّه اليوم أبعد ما يكون على الواقع لأنّ اقتصاد الدول العظمى يُبنى أساساً على الصناعة والفلاحة وبدرجة أقل على التّجارة، فالدول الّتي تفشل صناعياً وفلاحياً هي دول فاشلة تجاريا بالضرورة.

هذه الخطب الجريئة والأفكار المُقنعة والتحاليل المنطقية أحرجت كثيراً الأحزاب المنافسة والطامعة في السّلطة والرّاغبة فيها، ومن وجوه الإرباك هو نقدها اللاّذع لفكرة ما يُسمّى بالتأسيس، فالمجلس التأسيسي المحدث إبّان الثورة لا معنى لوجوده لأمرين، الأوّل أنّ منطلق التأسيس هو نصف قرن من الفشل، بمعنى أنّ تأسيس التشريعات كان نتاجاً لفترة زمنية

أثبتت فشلها، فهل يُمكن التأسيس من منطلق الفشل؟ الثّاني أنّ التأسيس كان نظرياً، وهذا في غاية الخطورة، فنحن نجرّب أوّلاً وإذا نجحنا نستخلص القواعد من التجارب النّاجحة، وهذا ما تعلّمناه من العلوم الصحيحة، أمّا أن نضع القواعد أي التشريعات قبل التّجارب فإنّها الطّامة الكبرى.

وجهات النظر المنطقية الّتي قدّمتها أصبحت «فاطمة» بموجبها خطراً يُهدّد كلّ المنافسين، فاحتلّت مكانة مُميّزة ومهمّة في صفوف الطبقات الفقيرة والمهمّشة.

ولهذه المكانة تلقّت العديد من الدعوات للانضمام إلى عديد الأحزاب وخصوصاً تلك الّتي اختلفت معها في الأفكار والرؤى، ولم تكن هذه الدعوات لغاية خدمة البلاد بل لإسكات هذا الصّوت المتحرّر القادر على سحب الجماهير الغفيرة من بساط أولئك المهيمنين.

وهذا الرفض دعاها إلى تأسيس حزب بلون جديد، هو لون الدفاع الحقيقي عن حُرمة الوطن والنهوض بالطبقات المفقّرة عمداً، فتدافعت الجماهير منخرطة فيما يخدمها ويدافع عن كرامتها.

- ١٩ -

استبطن «المهدي» وجهات النظر المختلفة تُجاه الوطن وتُجاه الثورة، ولم يبق له من حلّ سوى لقاء «فاطمة».. عاد به الحنين إلى زمن النضال الحقيقي، الآن لا يمنعه مانع من تحقيق ما كان يصبو إليه لمّا كان طالباً، ولمّا سمع خطاب «فاطمة» اشتدّ به الحماس وعاد جسده شباباً يتّقد حيوية ونشاطاً، الآن عليه أن يقف للوطن بعد أن أحاطت به الكلاب، وهذه الكلاب لا تنفكّ تنهب وتنهش، بلادي وإن جارت عليّ فهي عزيزة على القلب، محفورة في الذّات، مُتعلّقة بالكيان.

وكيف حال الوطن؟ كلّ أبنائه هجروه وخانوه وباعوا ترابه بأبخس الأثمان. شيّعوا جنازته وتهالكوا لاقتسام ثروته.

بات الوطن اليوم حملاً، من يُسخّر حياته لاسترجاع هيبته؟ من يدفع حياته ثمنا لاسترداده.

قرّر أن يعقد العزم مع الشرفاء، أن يقاتل من أجل الخضراء، «فاطمة» أين أنت حتّى نبني حائطا للدفاع، ونبني حصنا يحمي الوطن؟

وهل يمكن لـ «فاطمة» أن تتنازل من عليائها؟ وهل يمكن أن تعيد مسار النضال مع رجل هارب من ظلّه، متنكّر لقدره،

رافض للقتال من أجل التصدّي لزحف الخيانة؟

الآن فعلاً، هو في مفترق الطّرق، بين طريقين لا يعرف نهاية كلّ منهما، ولا إلامَ يؤدّي كلّ مسلك منهما، وحتّى الوطن في المفترق، إمّا قادة شرفاء يقتلعون الطّفيليات بجثث الشهداء ودم الشرفاء، وإمّا قادة خبثاء يقتلعون الاخضرار من عيون «قرطاج».

ولكن كيف يُمكنه أن يجمع شتات ما لا يُجمع؟ تفرّق القوم مع تفرّق مصالحهم، من أين يبدأ؟ وأيّ الطرق يسلك حتّى يعثر على السبل الحقيقيّة لإنقاذ الوطن.

المشهد السياسي في غاية الغموض والتشابك، ولم يعد بالإمكان أن تدرك من يتآمر مع من؟ يتغيّر المشهد صباحاً مساء ويوم الأحد.

احتار حول الطرق الّتي عليه أن يسلكها. هل يتّصل بـ «فوّاز» و «عبد الودود»؟ لقد كانا صديقين ولابدّ أنّهما يتّفقان حول الوطن أم باتت المصالح هي الأَوْلى ولم تعد النفوس صافية نقيّة مثلما كانت منذ عشرين سنة، للثورة إيجابيات لا تُحصى ولا يُمكن إنكارها، هذا ما أجمع عليه أغلب السياسيين إلاّ أقلّهم، ولكنّها مع ذلك زرعت العديد من الكراهية والحقد في نفوس «المجتمع المُتسيّس»، العديد من شباب البلاد كانوا في نِعَم التوافق والتآخي لكنّ الثورة وجّهت اهتماماتهم وجهات مختلفة فكم كثيرٍ كانوا أصدقاء تحوّلوا بعد الثورة إلى أعداء، فرّقتهم السياسة، فهذا ولّى وجهته قِبلة

اليمين والآخر قِبلة اليسار والثالث قبلة لا يُعلم منتهاها.

وازداد حيرة لما شهده الوطن من دمار، أيصلح القوانين أم الساسة أم المُجتمع؟ كلّ الأشياء قد فسُدت أو لعلّها انتهت إلى دمار، لا يعلم أكان هذا الدمار من جرّاء الثورة أو من جرّاء خمسين سنة من السياسات الخاطئة؟ ولو طُرح هذا السؤال على ساسة اليوم لاشتدّ بهم الصراع إلى ما لا نهاية له، وهذا ما أفلحوا فيه، الصراع من أجل الصّراع أو لعلّه من أجل المصالح، أمّا من أجل الوطن فلا يكون.

هي خواطر خطرت في ذهنه، بل هو واقع يُسيطر على الوطن.. «تونس» الأنس تتحوّل إلى بؤرة للفساد، أقاموا بثورة من أجل الإصلاح أم من أجل الإفساد؟ سؤال حيّر كلّ العقلاء؟

من أين يأتي كلّ هذا الدّمار؟ الكلّ يتّهم في الكلّ، والكلّ يُظهر البراءة، لم نعد نعلم في هذا البلد من هو يوسف ومن هو الذئب، وهل أكل فعلاً الذئبُ «يوسف».

اضطراباتٌ وإضرابات شلّت البلاد وعطّلتها، سياسة فاشلة كرّرت أخطاء الماضي ولم تطرح البديل، سياسيون تغيّرت وجوههم وألوانهم وتحوّلت أجسادهم إلى حمولات ضخمة أضحت عبئاً على الوطن، ورعيّة انساقت وراء ظلمات لا حدود لها، بحثت عن ما يسدّ الجوع في زمن بات فيه الجوع قاب قوسين أو أدنى من الانتشار كـ«الفَايْرس» في كلّ أرجاء الوطن وأزقّته.

الحِمل بات عسيرا لأنّ الوطن أضحى يباباً، لم يعُد هنا الأنس، بل أضحى هنا البؤس، معادلة تزيد من الحيرة والقلق والأرق.

قرّر «المهديّ» أن ينزل إلى ساحة الوغى وأن يخوض الحرب.. سيتحوّل إلى صحفيّ لامع يكشف حيرة الوطن وبؤسه، لأنّ السؤال العميق الكامن في صدره: من وراء خراب الوطن؟

- ٢٠ -

فارق «مهديّ» مدينته وسافر إلى العاصمة والأمل يحدوه في تغيير وضع الوطن، فكّر مليّا في كيفية خوض المغامرة العسيرة، «عبد الودود» هو الشخص الأقرب لما يعرفه عنه من صدق ورفعة أخلاق إضافة إلى مكانته على رأس السّلطة.

بعد أيّام طويلة من المحاولات المُتكرّرة تمكّن من التقاء «عبد الودود»، كان مشغولاً بأعمال كثيرة، مسؤولياته الحزبية ومهمّته في الدولة وزيراً ملآ حياته، لم يعد لديه أوقات فراغ للقاء الغرباء والزوّار، فالمسؤوليات الجسام كبّلت حياته، بين الزيارات الميدانية والعمل في المكتب والتواصل مع وسائل الأعلام كان يُقضّى يومه، ولم يعد لعائلته أيضاً نصيب في رؤيته كامل الأيّام إلاّ في آخر الأسبوع.

قال «مهديّ» مازحا: بتَّ من الشخصيات المهمّة في البلاد، نتردّد على مكتبك منذ أسبوع من أجل أن نظفر منك بموعدٍ. لكن يبدو أنّ مشاغلك كثيرة ولا تُحصى.

ردّ بجديّة: هي الحياة ومشاغلها، العائلة ومكتب الوزارة ومسؤوليات الحزب كلّها على عاتقي.

- أصبحتَ رجلا مهمّا إذن في حزبك وفي الوطن، مع إنّي في

الجامعة لم أذكرلك نشاطاً حزبياً.

- الماضي غير مهمّ، ذهب وانقضى ولا فائدة في إعادة تقليبه، نحن نعيش الحاضر من أجل مستقبلٍ أفضل لنا ولأبنائنا ولوطننا.

- نِعْمَ القول، ولهذا تحمّلت مرارة الانتظاروبرود الاستقبال الّذي استقبلتنيه، لا داعي لتقليب الماضي كما قلت المهم أنّي جئت من أجل إنقاذ الوطن.

قهقه بصوت عالٍ: كأنّك تلمّح إلى انهيارالوطن بعد وصولنا – نحن الإسلاميين - إلى الحكم، أعلمك إذن أنّ «تونس» من أفضل الدول عربياً الآن، في الحريات السياسية والفردية وحقوق الإنسان، ولتعلم أيضا أنّنا، ومنذ تولينا الحكم، لا يوجد سجين سياسي أو سجين رأي في سجوننا.

- آه، ولكن لا فضل لكم في ذلك، إنّما الثورة ثورة شباب وهم الّذين واجهوا بصدورهم العارية الظلم والاستبداد، وفتحوا بدمائهم عهد الحرية والديمقراطية، غير أنّي ما جئت لهذا، جئت من أجل الوطن، ومن أجل الشباب الّذي ضاع دمه هدراً.

- كلّ الّذي ناضل تحصّل على ثمن لنضاله، لقد تحصّلت عائلاتهم على التعويضات وفق ما يُمليه القانون.

- القانون متحجّر، وهو رهين أشخاص ومنظّمات، بإمكانهم بجرّة قلم استبدال جميع هذه القوانين وشتّان بين من يناضل فيحصل على السلطة مقابل بعض السنوات

سجنا ومن يُناضل فتحصل عائلته على ملاليم مقابل دمه.

- أجئت للمحاسبة؟ وصلنا إلى الحكم عن طريق انتخابات حرّة شفافة ونزيهة ولا أحد في العالم شكّك فيها.

- ما جئت لأتيقّن أو لأشكّ، جئت من أجل شباب الوطن، عائلة «حمّه» والعديد من العائلات مثيلاتها تُعاني الويلات، إضافة إلى انتشار الفوضى في البلاد والإرهاب والترهيب والتهريب.. أهذا وطن أم وكر للفساد؟

- هذا طبيعيّ.. فنتائج الثورة لا تكون حينيّة، لا بدّ من الصبر والتضحيات، تحقيق الديمقراطية يتطلّب تضحيات جساماً، ونحن لا زلنا في بداية الطريق.

- الجائع والمسكين والفقير لا تهمّه الديمقراطية الآن، وإذا مات جوعاً فما نفع الحريّة؟ لابدّ أن نجد وسيلة بل حلاّ مناسباً يُنقذ البلاد من شبح الإفلاس ويسدّ جوع أولئك الجائعين.

- لمّا كنّا في السّجن لا أحد حرّك ساكناً وطلب العفو علينا، وقال بأحقّيتنا في الممارسة السياسية والعيش في الوطن بحرّية، عائلاتنا أيضاً لم تسلم من القهر، شُرّدت ودُمّرت ونُهبت وقُتّلت و أُلقي بها في المستنقعات والمزابل وتأتي اليوم وتحدّثني عن التضحية!! أين كنت طيلة ربع قرن؟!

- يبدو أنّكم لا تحسنون النضال من أجل الوطن، أنا لم أقل تنازل وغيّر نتائج الصندوق، بل قلت كيف يُمكن إنقاذ الوطن، أقترح على سبيل المثال تشكيل لجان في مُختلف المستويات - القانون والاقتصاد والمجتمع... وغيرها، تتكون هذه اللّجان من خيرة ما أنجبت «تونس» من كفاءات ترسم

مستقبل البلاد ولا داعي إلى مضيعة الوقت في خزعبلات التأسيس. فأغلب أعضاء المجلس التأسيسي من الأميين ومن غير الكفاءات، فهل يمكن لهم رسم مستقبل البلاد؟

- لا يمكن أن تستقيم البلاد إلاّ بإعادة التأسيس.

- وهل الّذين أسسوا بعد الاستقلال لا كفاءة لهم، إنّما مشروع إعادة التأسيس ترغبون من خلاله تهديم ما أنجزه خيرة كفاءات «تونس» وقتئذ من أمثال الزعيم، أرى أنّ غايتكم تهديمية لا غير، وإن كان هناك بعض الهانات يمكن إصلاحها فقط، أمّا ما تقومون به من إعادة التأسيس أراه مضيعة للوقت.

- أرى أنّ غايتك الأساسية أن تسحب من تحتنا البساط لا غير، قل من أرسلك لتفاوضنا؟ أهوزعيم اليساريين الفاشل؟

- الحوار معك أصبح عقيما، أوّلا أنا انسحبت من كلّ الأحزاب منذ زمن، أمّا ما رأيته من فوضى ونهب وسرقة وانتشار للأوساخ وتدهور لوضعيات الفئات الضّعيفة هو الّذي دفعني لإنقاذ الوطن، وثانيا لو دامت السلطة لغيركم لما آلت إليكم، قريباً يسأم الشعب من السياسة ويقود حرب الكلّ ضدّ الكلّ.. حذارِ.

- نحن نحكم بالديمقراطية والعدل والمساواة، لذلك سيكون الشّعب معنا، ألم تشهد نتائج الانتخابات؟ ولمّا فشلتم في الوصول إلى السّلطة ديمقراطياً شرعتم في المناورة.

- قلت ما جئت للمناورة.. أذكّرك، جئت من أجل الوطن لا غير، ولم أقل تنازلوا عن الحكم بل طلبت تغيير نظام الحكم

من أجل أولئك الفقراء والمساكين والمحتاجين، يكفي من الصّراع ولنهتمّ بالوطن.

- مداخلكم شتّى وهدفكم واحد.. لن نتنازل عن السّلطة وإن تحالفنا مع ...

قاطعه: عليّ الانصراف.. تذكّر أنّ الوطن يسير نحو الهاوية.

- ٢١ -

سئِم ذلك اللّقاء الّذي جمعه بـ«عبد الودود»، كان بودّه لو كان لقاؤهما إيجابياً، سعى إلى أن يجمع الشتات بعد أن تناثر حبّات حبّات، وكلّ يولّي حقده نحو الوطن، ألهذا الحدّ سيطر عليهم الطمع والانتهازية!! لا أحد يصدح بصوت الوطن، كلّهم تحت إِمرةِ أحزابهم ورؤسائهم، ولا أحد فيهم في خدمة الوطن، كلّهم في خدمة أسيادهم.

لم ينتظر كثيرا على باب مكتب «فوّاز»، استقبله صديقه أفضل الاستقبال ورحّب بقدومه أيّما ترحيب.

قال «فوّاز»: حللت أهلاً ونزلت سهلاً.. طال غيابك وعرفت كيف تراود أنثى وتفوز الفوز كلّه، شركات وأموال، تغيّرت حالك نحو الأفضل وصرت من رجال الأعمال المشهورين، ولولا لعنة هذه الثورة أو قل لعنة هذه الفوضى من قبل بعض المارقين المتصيّدين في الماء العكر لكنت بيننا في الحزب ولحصلت على منصب يليق بذكائك وطموحك، كنتُ من المساندين والمرحّبين بانضمامك إلينا.

أجاب بصوت متثاقلٍ: قتلت فيّ الحماس بعد أن اشتدّ.

- ستبقى دائما شابّاً يافعاً، والذكاء يجدّد الشباب، وعهدي

بك رجلا ذكيا.

- الثورة قد حدثت ولا داعي إلى أن نعود إلى الوراء ونقلّب الماضي، ومن حسن حظّي أن حدثت الثورة وإلاّ لأصبحنا في نظر العموم من الانتهازيين.

- أتحسب الانضمام إلى الدستوريين انتهازية؟ إنّه لشرف لكلّ إنسان أن يكون دستورياً، حزب ناضل من أجل الاستقلال فناله، وناضل من أجل بناء الدولة الوطنية الحديثة فبناها.

- لا ننكر أنّ هناك مناضلين من الدستوريين، وهناك أيضا انتهازيون.. ولكن لست هنا من أجل هذا.. ولست أهلاً لتقييم هذا الحزب، أنا هنا من أجل الوطن.

- ألا تعلم أنّ الوطن هو الحزب، والحزب هو الوطن.

- تلك لعبة انتهت منذ العهد السّابق، الآن الوطن في حاجة إلينا جميعاً، يجب أن نتّحد.

- مهمّ جدّا ما أسمع منك، نحن الدستوريين الشرفاء بصدد تأسيس حزب نستعيد من خلاله أمجادنا وننقذ الوطن من الانتهازيين الجدد والمتآمرين علينا.

- دعنا من السياسة ومن الأحزاب والانقسامات الّتي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، نجتمع من أجل «تونس» لا من أجل الأحزاب.

- لا نستطيع أن نخدم الوطن إلاّ عن طريق الحزب الدستوري، وإذا أردت الانضمام فإنّ في التحاقك بنا خيراً لنا ولك وللوطن.

- لا بدّ أن ينضمّ الكل إلى الكلّ، هذا هو الوطن أمّا أن

ينضمّ الكلّ ضدّ الكل فلا معنى.

- ماذا تقصد ؟ أفصح.

- أرى أنّه بات من الضروري الالتفاف حول الوطن. لا داعي للصراع، حان وقت البناء، الثورة اختبارلنا جميعا حتّى نستأنس بالأنس.

- أتريدني أن أجتمع بأعداء الوطن ودعاة الفوضى! أولئك الّذين أشهروا سيوفهم في وجوهنا، يريدون القصاص والمحاسبة، إنّهم لا يقدرون على قيادة سفينة فهل يقدرون على قيادة وطن؟

- لا بدّ أن ننهي الحقد، وهذا ما أطلبه لا غير.

- مكانهم السّجن وسيعودون إليه عاجلاً أم آجلاً.

- هل الوطن ملك لكم حتّى تتصرّفوا فيه كغنيمة؟!

- أنت معنا أم معهم.

- لا معكم ولا معهم، أنا مع الوطن، ولن نبنيه بالصراع والتقاتل والخصام بل بالمحبّة بالوئام.

- ما تقوله مجرّد شعر، بل هو حلم، يا بُني الوطن لا يُبنى إلا بالنضال، ونحن رمز النضال، أمّا ما دون ذلك فهو الوهم.

- كلّما اشتدّ الصراع بينكما خسر الوطن، «تونس» تنهار يوماً بعد يوم، تفقد رونقها وبريقها، جمالها مناظرها الخلاّبة. ألا ترى البؤس الّذي حلّ بالبلاد، سيؤدّي بكم الحقد إلى العدم بل إلى الفناء، وبعد ذلك ستبكون كالنساء على وطن لم تحافظوا عليه.

- لا داعي للمواعظ.

غادر مكتب «فوّاز» وملؤه الإحباط، فشل في أن يُلملم أشلاء الوطن، لم يبق أمامه إلاّ الاتّجاه نحو «فاطمة»، وهل يمكن أن تثق فيه بعد أن هجرها دون سابق إعلام ذات خريف بائس.

سيحاول بكلّ ما أوتي من جهد، سيتنازل من أجل وطن ويسعى إلى استعادة أمجاده، لقد عانى من الغربة عن الوطن فأدرك دلالته ومعناه، الوطن ليس مجرّد رقعة جغرافية، إنّه أمّ تحتضنك لحظة تيهك عن الوجود، لحظة ضعفك، ولحظة جنونك.. إنّه عطر يُعطّر حياتك بالطمأنينة والهدوء والتوازن، هو تاريخ يُعلّمك معنى الانتماء ويثبت نسبك ويؤكّد هويتك. هو تراثك ومجدك ...

قرّر أن يُجابه كلّ المصاعب، أن يتحدّى البؤس والمرارة ويسعى إلى إنقاذ الوطن.

و «فاطمة» كالوطن هي التّاريخ والمجد والهويّة، قد تكون كرهته ولا تُطيق وجوده في حياتها ولكنّها لا يمكن أن تصدّه من أجل وطن ناضلت من أجله وقدّمت كلّ التضحيات زمن الشباب، أمّا اليوم فقد نضجت واكتملت فلا شكّ في أنّها ستكرّس حياتها للنضال.

كاد اليأس يتسلّل إليه بعد فشله في إقناع «فوّاز» و «عبد الودود»، بيد أنّ الأمل يعود من جديد بعد اطّلاعه على خطب «فاطمة» واستعدادها للنضال في سبيل الوطن.

- ٢٢ -

التقى و «فاطمة» في كليّة «٩ أفريل»، تعمّدت أن يكون الموعد في «السّاحة الحمراء» تلك السّاحة الّتي شهدت نضالات أجيال من الشبّاب الصّادق والوطني، كانت السّاحة تغصّ بالجماهير من الطلاّب الذين يجوبون البلاط ذهاباً وإيّاباً، تبدو عليهم مظاهر التنافر والتناقض، بعضهم متأنّق في لباسه وسلوكه والبعض الآخر مستهتر لا مبال.

قالت: ما بك تطيل النظر في هؤلاء.

- تغيّر الأشخاص، أمّا المكان فبقي على العهد.

بعد تأمّل في المطلق قالت: اختصرت كلّ المسافات، لا زلت نبيهاً كعهدي بك.

قدّمتْ له كوباً من القهوة السّوداء وجلست قبالته قائلة:

- تغيّر لون وجهك ولباسك ومظهرك، ولا أعلم أتغيّر قلبك أيضاً مثل هؤلاء أم مازال ينبض بالحياة.

بعد أن ألقى رشفة من القهوة في جوفه قال:

- أظنّ أنّ وقت المحاسبة لم يحن بعد، جئت من أجل

الوطن.

- أعرف أنّك لا تكترث لأمري. ولكن أردت أن أختبر نبض قلبك تُجاه الوطن، نحن اجتمعنا في الماضي حول فكرة ويجب أن نجتمع اليوم حول ذات الفكرة، دعك منّا نحن، حكايتنا انتهت، أنا أخاطب الإنسان العاشق للوطن لا العاشق للأنثى.

- من خان لا يعرف العشق، ولن يكون عاشقاً سرمدياً.

- قرأت كلّ مقالاتك حول النظام السّابق، وجدت فيهم ما يُشفي الغليل، ولو كنت بجواري وقتئذ لقبّلت جبينك.

- لكنّهم تمكّنوا منّي وكادوا يُجبروني على النزول إلى مستنقعهم.

- لا بأس.. ذاك عهد ولّى.. لنبدأ من جديد.

- قبل أن نبدأ لا بُدّ أن أقدّم اعتذاراتي.

- هكذا نكون قد عدنا إلى النقطة الصّفر.

- لم أفهم القصد؟

- نحن مجتمعون للنضال من أجل الوطن لا لنتعاشق مثل هؤلاء الشباب، عشقنا الحقيقي لوطننا أمّا علاقتنا الشخصيّة فأمرلم يعد له أيّ معنى اليوم، وإن أردت الوطن فكفّ عمّا يدور الآن في جمجمتك.

*****

رغبت عنه حبيباً ولكنّها رغبت فيه مناضلاً شرساً وقويّاً من أجل الوطن، كوّنت مجموعة من المناضلين الشّرفاء، شرعوا في إنقاذ الوطن، كانت امرأة جسوراً لا تهدأ ولا تكفّ عن

العمل، كشفت عيوب الانتهازيين جميعهم للجماهيروبدأت في إصلاح الوطن على نحو حقيقي لا نهب فيه ولا سرقة.

علا صوتها من بين الأصوات وشرعت في تأسيس قاعدة جماهيريّة عُظمى بعد أن أقنعت بقولها وصدقت بفعلها. اختارت من العناصر الوطنية أصدق النّاس وأخيرهم.

في تلك الفترة عاشت البلاد تناحراً سياًسيا رهيباً، نزلت كلّ القوى بثقلها بل بأموالها وجيوشها وعبّأت الميادين، وكلّ حزب يسعى بكلّ ما أوتي من قوّة إلى الهيمنة على البلاد، وكلّ القوى تملك الأموال وخزائن الذهب والفضّة باستثناء «فاطمة» الّتي لا تمتلك سوى مجموعة من الشرفاء، وبهؤلاء هيمنت على القواعد الجماهيرية ونبشت قلوبهم ودغدغت أهواءهم.

ومع إحكامها السيطرة على قلوب العباد فإنّها لا تأُمَن مكر أولئك المتربصين بها وبالوطن، الكثير من الرسائل تصلها من الأحزاب الأخرى تستدعيها من أجل الانضمام إليها والعديد من التهديدات الخفية والعلنية تدعوها إلى الكفّ عن العمل السياسي.

ومع ذلك تظلّ صامدة صمود الجبال الشامخة. رفضت بكلّ ما أوتيت من قوّة وشجاعة وبأس جميع تلك التهديدات وتمكّنت من التصدّي إلى كلّ المارقين عن الوطن. تسلحت بالعزم والحزم ورفعت راية الوطن. ومن هذه اللحظة بدأت المعركة الحقيقيّة.

وأثناء معاركها المتواصلة كشفت العديد من الخروقات

في المجلس التأسيسي، صراعات وهميّة تُختلق فيه، يُكرّرون ما أُسّس بعد الاستقلال، يزعمون إعادة كتابة الدستور وتناسوا هموم الشّعب الّذي ثار، دُستور خادم للفئات الضّالة تدعمه أموالٌ مشبوهة، أموال تسعى إلى تغيير مسار الثورة، القضايا الأهم تنُوسيت - قضية التهميش والبطالة والفقر... ألهذا الثورة قامت؟ أقامت من أجل تحبير أوراق لا تُسمن ولا تُغني من جوع أو خدمة البورجوازية المستكرشة؟

خطاباتها في هذا المنحى لم تكف، ضغطت كثيراً من أجل النزول إلى الطبقات المهمّشة من أجل النهوض بوضعها البائس، تجاوزت كلّ الخطابات الخشبية الفضفاضة ولامست هموم البائسين وشواغلهم.

- ٢٣ -

تغيّر وضع البلاد بنزول «فاطمة» إلى الميدان، تشكّل وعي عميق بمشاغل البلاد الحقيقية، واصطفّ الجماهير حولها، الجماهير الغفيرة تدعو من جهة إلى مُحاكمة خائني الوطن والمتسببين في تدهور الأوضاع الاجتماعية، والسياسيون من جهة أخرى يدفعون نحو إحكام السيطرة على البلاد. الوطن على شفا جرف هارٍ.

الآن أحسّ «المهديّ» أنّه يعود إلى الوطن فعلاً، والآن بدأ النضال الحقيقي من أجل الوطن، لم يكن النضال أيّام الجامعة إلاّ حراكاً طلاّبياً داخل أسوار الكليّة أمّا اليوم فالنزول إلى الميدان يُغري الوطنيين، المعركة الحقيقيّة تبدأ الآن، وكم هو في حاجة إلى نزالٍ حقيقي يثبت من خلاله ذاته ويؤكّد عمق حبّه للوطن.

بداية الحراك كان على شبكات التواصل الاجتماعي، تنسيق بين مجموعات مُهمّة من الشباب المتطوّع، اتّفقوا على كشف كلّ الخروقات الّتي خرّبت البلاد، وكلّ المتورّطين في النهب والسّرقة، حان وقت المُحاسبة وتطهير البلاد من الأدران، و«فاطمة» هيّأت كلّ المناصرين ودرّبتهم من أجل

اليوم الموعود وهو اليوم الّذي ستعلو فيه راية الوطن.

بيد أنّ الحراك الثوري سرعان ما تغيّر نحو التطبيق عبر النزول إلى الشّارع لطرد كلّ المفسدين، الثورة الحقيقيّة تنطلق الآن وهنا، سنستعيد «تونس» الخضراء، «قرطاج» التّاريخ، «تونس» الأنس، سنعيد الطمأنينة إلى قلوب البسطاء والوطنيين، ونزرع فيهم الأمل من جديد، سنُعيد حبّ المواطنين لوطنهم.

انقسمت البلاد إلى كتلة صالحة وأخرى طالحة، فئة تبني وأخرى تخرّب، جمهور يدعو إلى الوجود وآخر إلى العدم.

احتدّ الصراع وبدأت المعارك الحقيقيّة، وبدأ الإحكام الفعلي على دواليب الدولة، كُشف المستور وعُرف من الظالم ومن المظلوم.

حانت السّاعة، الآن لا بدّ أن تنطلق المُحاسبة ويتطهّر الوطن، لكنّ هي المفاجأة لم يُقرأ لها أيّ حساب، مفاجأة قد تدمّر كلّ ما بُني، ظلّت «فاطمة» صامدة لا تتزعزع، بيد أنّها فَقَدت العديد من المناصرين خوفاً، عليها أن تعيد ترتيب البيت من جديد، أن تضع في خطط الدفاع والهجوم هذا المعطى الجديد.

جمعت كلّ المناصرين الحقيقيين لها فدعت إلى تجمّع عظيم في «الشّارع الرّمز»، وكان يوم لقائها بالجماهير عظيما.

امتلأ الشارع وغصّ بالمساندين والمؤيّدين، رفعت كلّ شعارات تطهير الوطن وضرورة إصلاح ما فسُد، تشبث الجمهور بموقفه، وإزاء الدعوات المتكرّرة صعدت على الركح وبصوتها الجهوريّ قالت:

«فليشهد التّاريخ أنّ هذا اليوم إمّا أن يكون لنا فنرفع الوطن فوق رؤوسنا ونشقّ به أبحر المؤامرات وأنهار المتربّصين لنعبر إلى الضفّة الأخرى فننجو وينجو فنخلّصه من الغدر والخيانة.

وإمّا أن يكون علينا فنسقط وإيّاه في الوحل إلى الأبد فنُشرّد ونُدمّر ويسقط الوطن في مخالب الوحوش.

إنّ تآمر «فوّاز» و «عبد الودود» علينا وتوافقهم من أجل الإطاحة بنا لدليل على ضعفهما، فالواحد منهما لا يمكنه مواجهتنا بمفرده لذلك تقاربا لا من أجل الوطن بل من أجل نفسيهما لا غير لمزيد إحكام السيطرة على البلاد، فكيف يجتمع جلاّد الأمس وضحيّته؟ هذا لا يستقيم إلاّ إذا كان الأمس من قبيل المناورة والخداع.

لسنا هنا للتحليل والتأويل ولكن عدوّنا وعدوّ الوطن بات ظاهراً للعيان، ولن نرضى حتّى نتمكّن من جرّهم إلى السجون وهو مكانهم الطّبيعي....

ليحي الوطن ... وسلام على الوطن».

وما إن قفلت خطابها حتّى تحرّكت الجماهير تجوب الشوارع، داعية إلى ضرورة تحرير الوطن.

ليلة غريبة من ليالي الشّتاء تذكّر بليالي الأساطير، لا ظلمة مسيطرة ولا نور بل إنّهما يتصارعان ويتقلّبان ويصّعدان كدخان السّحر يخترق السّماء رويداً رويداً، شهر جانفي ذلك الشهر الرمز- وفي وطني للأمكنة رموز وللأزمنة أيضا رموز - كاد ينقضي، وليلة كليلة القدر الطقس فيها هادئ لكنّ التسابيح تُهلّل بولادة وطن جديد، وقديماً أسّست عليسة «قرطاج» بعد أن قدمت من وراء الصحاري، وها هي اليوم «فاطمة» تُعيد تأسيسها من جديد بعد أنْ همّ فيها اليباب ودبّ السوس في الأخشاب.

*****

قام الفجر متكاسلاً يُنبئ بالحيرة، انقشعت الأنوار والدخان وساد السّواد الحالك، لم يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، شرعت الدّموع في النزول من السّماء زخّات زخّات والبرق كفّ عن الوميض، والنجمة القطبية فقدت صمودها واضمحلّت قبل أوانها تاركة السّماء تغرق في الظلمات وحتّى الأرض.

كلّ الإذاعات بثّت الأغاني الحزينة وكلّ التلفزات ضيّعت ألوانها الزاهية واستبدلتها بالسّواد، نشرات الأخبار المُتتالية تُعلن عن حادث الاغتيال، «فاطمة» اخترق صدرَها وابلٌ من الرصاص وباتت في ضفّة العدم، لا يعلم النّاس من القاتل؟ ومن المقتول أيضا: «فاطمة» أم الوطن؟

حزم «المهدي» كلّ حقائب الذكرى وألقى بها في البحر وقفل عائدا إلى «روما».

ماســـتر©